إِحْيَاءُ مَنْهَجِيَّةِ

النَّمَطِ الأَوْسَطِ

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

يمكن مراسلة المؤلف على العنوان التالي info@goraba.net

الناشر: مركز الإبداع الفني للدراسات وخدمة التراث

اليمن ـ عدن ص.ب: ٧٠٠١٤

إِحْيَاءُ مَنْهَجِيَّةِ

النَّمَطِ الأَوْسَطِ

مِنْ

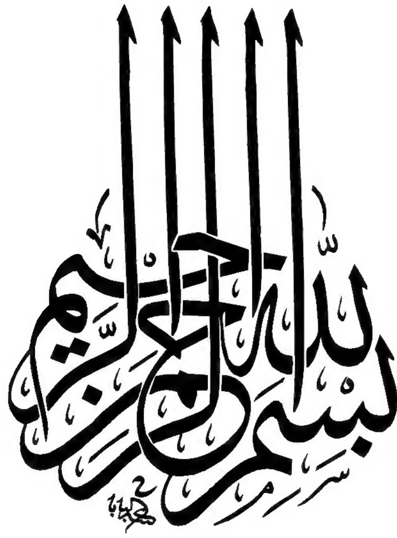
سَادَةِ الصُّلْحِ وَبَقِيَّةِ السَّيْفِ

وَبَرَاءَتُهُمَا مِنْ طَرَفَيِ الإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ المُسَيَّسِ

عن عمّار ابن ياسر رضي الله عنه قال: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقولُ لعليّ ابن طالب: يا عليّ: إنَّ اللهَ عز وجل قَدْ زيَّنَكَ زينةً لم يُزَيِّن العباد بزينةٍ أحبُّ إليهِ منها: الزُّهد في الدنيا» [أسد الغابة: ٤/ ١٠١].

بقلم خادم السلف

أبي بكر العدني ابن علي المشهور


بسم الله الرحمن الرحيم

المطلع القرآني

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ١١ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾

[سورة الحاقة: ١٠-١١]

المطلع النبوي

● «إِنّه سيكون فِي آخر هذهِ الأمّةِ قومٌ لهم مثلُ أجرِ أَوَّلِهِمْ يأمرون بالمعروفِ وينهونَ عن المنكر ويقاتلونَ أهلَ الفتن».

أخرجه البيهقي في (دلائل النبوة ٦/ ٥١٣)

● «إنَّ للهِ تعالى عند كلِّ بدعةٍ كِيد بها الإسلامُ وَلِيّاً من أوليائه يَذُبُّ عَنْ دِينِهِ».

رواه أبو نعيم في (الحلية) عن أبي هريرة

المطلع الأبوي

١ - «بَقِيَّةُ السيفِ أَنْمَى عَدَداً وأكثرُ ولداً».

٢ - «خَيرُ الناس هذا النَّمَطُ الأَوْسَطُ.. يَلْحَقُ بِهِمُ التالي ويَرْجِعُ إليهمُ الغالي»وفي رواية: «...العالي».

الإمام علي بن أبي طالب، مصنف ابن أبي شيبة (٧: ١٠٠)

٣ - «مَنْ حَمَل السيفَ مِنّا آلَ البيتِ قُتِلَ بِهِ».

الإمام الحداد

٤ - «إن كسرَنا السيف بالاختيارِ كان موقفاً واعياً لما قد سبقه من قطع رؤوس آبائنا دونَ اختيارٍ».

ناطق المرحلة

شاهد الحال

«يا أَيُّها الناسُ.. أَحِبُّونا حُبَّ الإسلامِ.. فما بَـرِحَ بنـا حُـبُّكُمْ حتـى صارَ علينا عاراً».

وفي رواية: «أَحِبُّونا حُبَّ الإسلامِ.. فو اللهِ مـا زال بنـا مـا تقولـونَ حَتّى بَغَّضْتُمُونا إلى الناسِ».

علي زين العابدين ابن الحسين رضي الله عنهما

(الطبقات الكبرى) لابن سعد (٥/ ٢١٤)

الموقف الذاتي من الأحداث

كان لابد من التمييز بين الإفراط والتفريط وإدانتهما، كما أنه لابد من إبراز مفهوم الاعتدال المشروع على منهج النمط الأوسط وإحيائه، وأهم من ذلك كله تحديد خطورة التسييس في كافة الأطراف واستثمارها ، وهناك ومن خلفها يقبع المسيخ الدجال.

ولهذا لابد من التمييز بين موقفنا من التشيّع الإيجابي وبين التشيّع القائم على الرفض والتبرِّي واللعن والإباحة والاستباحة.

والتشيع الأساسي مقبولٌ بشروطه، والتشيّع السياسي مَرْدودٌ بشبهاته، شأننا من ذلك شأننا مع منهج أهل السُنَّة الأساسي – ونحن جزءٌ منه – ومنهج أهل السُنَّة السياسي؛ ولنا موقف منه.

فموقفنا هو موقف الاعتدال إن شاء الله مِنْ طرفي الإفراط والتفريط، سواء في المذهبية أو التصوف أو حب آل البيت، ولكل مقامٍ مقال.

وقد نهى الله الأمة عن الجَدَل، وفي ذلك يقول المعلِّم الأعظمﷺ: «ما ضَلَّ قوم بعد هدىً كانوا عليه إلا أوتوا الجدل».

والعافية من الجدل في **اتباع النمط الأوسط** كما قال الإمام علي رضي الله عنه.

الإهداء

إلى سادتي آل البيت الكرام، وأخص سادة الصلح الواعي وبقية السيف..

وإلى أبنائهم وأحفادهم وأسباطهم في أنحاء العالم أجمع..

وإلى عموم المحبين من طرفي الإفراط والتفريط والاعتدال..

لقد آن الأوان للنظر الجاد في (سفن النجاة) فالطوفان قادم ..

وآن الأوان لكل ربان حاذق في هذه السفينة أن يجنب الرُّكاب خَطَر الاصطدام، وخطر الأمواج، وخطر الحيتان المتربصة، وأكبر من هذا خطر الاختلاف بين الرَّكاب..

﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ..

صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلْعَظِيمُ

مفتاح الباب لأولي الألباب

الحمد لله الذي قدّر فهدى والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى، والقائل لنبيه ﷺ في تثبيت عِلْم الوحي في صدره الشريف ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ۝٦ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ [الأعلى:٦-٧]، والصلاة والسلام على سيد أهل الآخرة والأولى سيدنا محمد بن عبد الله رسول الله، وعلى آله الأطهار وصحابته الأبرار ومن تَبِعَهُم مِنْ هذه الأمة بإحسان إلى يوم العَرْضِ والاستقرار.

وبعدُ فإني أسألُ اللهَ التوفيقَ فيما أردتُ بَسْطَهُ من إيضاحاتٍ مهمة على هامش الطريق الطويل – طريق المسيرة الإيمانية للأمة الإسلامية في عصرنا – المحاط بصُنُوف الأخطار والآراء المتنوعة محلياً وإقليمياً وعالمياً، وخاصةً في قضية (آل البيت)، وهي القضية التي تكاد أن تبرز على المحيط بمعانٍ تُثيرُ القلق وتصنع الحسرة، مع أنها إحدى قضايانا التاريخية المسكوت عنها عند عقلاء المنهج الأبوي، لا لأن السكوت أولى، ولكن لكثرة التناول المغلوط – سلباً وإيجاباً – في هذه القضية(١) فصار السكوت كما عبّر عنه الشاعر «والسكوت

---

(١) قد يكون التناول المغلوط سلباً فكيف يكون إيجاباً؟ والمقصود بالإيجاب أي: ما يأتي من التناول المبني على الإفراط في المحب، والسلبي عكسها.

سلامة»، وطال أمد السكوت حتى استفاد المهندسون للقضايا من سكوت العقلاء وحولوا منه إحدى مواد الانفجار الطائفي في العلاقات بين المصلين.

وفي هذا الصدد أجد ذاتي ملتزماً ـ ما استطعتُ ـ أن أفتح باب الكلام داخل أقبية الصامتين من أحبابنا وأشياع مدرستنا العالمية لأبيّن ما أعتقدُ أنَّه الحق، غير ملزم أحداً بالاتّباع أو الالتزام بما اعتقدته حتى يتبيّن لهُ صِدق ما اتجهت إليه، فأنا لا أدعو إلى منازعة ولا عقوق ولا مقاطعة، وإنما أدعو – ما استطعت – إلى طريق الاعتدال الجامعة، والله على ما أقول شهيد.

إننا نحن المنتسبون لآل البيت عموماً قد وقعنا في مِحْنة الاستتباع والانصياع لرؤيتين متعارضتين: إفراط المحبّين، وتفريط المبغضين، وزاد الطين بلّة فينا جهلُنا المُطْبَق بعلاقتنا الشرعية بمنهج سيد المرسلين من حيث مفهوم الاقتداء والاهتداء في قضايا الولاء والبراء، فصار الكل يندفع نحو الهاوية بلا تعقّل ولا توازن، ولا مَنْ يقبض على حجز الشعوب وهي تتهافت في النار.

ولقد أعلنﷺ يوماً عن هذه الحال الذي تُدَمِّرُ به الأمةُ نفسَها عشيَّة قولهﷺ: «مَثَلي ومَثَلُكُم كَمَثل رجل استوقد ناراً في فلاة فَجَعل الجنادب والفراش يتهافتون في النار وإني قابضٌ بحجزكم وأنتم تتهافتون في النار»[1].

وهناك فرق بين رجال الحقيقة المغيبة وبين عنصري الإفراط والتفريط في تعليل وتفسير هذه الحقيقة على الساحة العالمية والمحلية، فالحقيقة القائمة على الوسطية الشرعية والاعتدال الواعي هي مذهب المصطفىﷺ وآل بيته الأطهار وصحابته السابقين الأبرار ومن سار على هديهم المشار إليه في مقولة الإمام علي رضي الله عنه وكرَّم وجهه: «عليكم بالنمط الأوسط يتبعهم التالي ويرجع إليهم الغالي»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١١/ ٣٨٣ فتح)، ومسلم في صحيحه (٢/ ٣١٤) والترمذي في سننه (٤/ ٢٣٠) وأحمد في المسند (٢/ ٢٤٤) والرامهرمزي في الأمثال (١/ ٢٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول اللهﷺ يقول: «إنما مَثَلي ومَثَل الناس كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، فجعل الرجل يزَعهنَّ ويغلبنه فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تقتحمون فيها».

(٢) سبق تخريجه.

وأما الأمر الدائر والشائع وحركة الواقع والقواقع فتـدهورٌ وتهـوُّر، إلا مَـنْ رَحِمَ الله، وهم قليلٌ من قليل، وليتَ الشعوب وشرائحهـم المُتقولِبـة قـد قَبِلَـت الواقع ورَضيته لنفسها كما يرسمه لها مهندسو القضايا وزبانية المراحـل، فعنـدها لا يهمنا الأمر بحال من الأحوال، ونحن قد رضينا السكون والسكوت وخاصة بعد أن نفض العديد من حَمَلَة قرار العِلْم والحُكم أيديهم عنا نحـن أهـل البيـت، واستأثروا بالقرآن والسُنَّة والدعوة وهداية الشعوب، وصاروا يحـذِّرون النـاسَ مِن ذواتنا الحيَّة وأجداثنا الميّتة، حِرصـاً – كـما يقولـون – عـلى سـلامة العقائـد، والموت على سياسة التوحيد، أو على كلمة التوحيد، والله أعلم.

ولأننا بين فكَّي كمَّاشة كما يُقال- إفراطُ المُفْرِطين الغُلاة، وتفـريط المُبْغِـضين البُغاة – فالحقُّ مشوبٌ بدخان الباطل، والشيطان يدفع بالجميع إلى حافة الهلاك، وهذا ما هو ملاحَظٌ ومُـشاهَد في شـؤون الأمـة، وفي شـؤون علاقـة الـشعوب بقضية آل البيت منذ أن عَرَفْنـا أنفـسنا في سـاحة المعرفـة بالاحتكـاك الـدائم في الواقع الرسمي والشعبي في الأوطان المتناقضة المجزّأة.

إننا في واقع يجمع بين التحدّي والتعدّي، وهناك من يـسعى بـين هـذا وذاك لإعادة نَبْش الجِرَاح، وتجنيد القلم واللسان والمال والحال للزجّ بنا – آل البيت – في حَلَبَة صراعٍ ونزاعٍ، حربٌ عاطفية هوجاء تحوِّل لحملـة قـرار الإفـراط وقـرار

التفريط اتخاذ الحُجَج ضد القابعين في دُورهم ومساجدهم للدفع بهم نحو معركة العَرْضِ والطَّلَب التجارية في المرحلة المعاصرة، لإشعال وقود العرقية والطائفية على غير تبصرة ولا وعي ولا تذكرة ولا خوف من الله والدار الآخرة.

ولأننا قد عانينا مِنْ قبلُ هذه الظاهرة في مراحل التسويق للقضايا ما عانينا، وسُحِلَ مِنْ مشايخنا وعلمائنا مَنْ سُحِل، وقُتِل مَنْ قُتِل، وغُيِّبَ مَنْ غُيِّب، ولَمْ نَصِل نحن وأشباهنا وأمثالنا من بقايا السيف وسادة الصلح إلى برّ الأمان والسلامة إلا باتصالنا الواعي بأئمة سادتنا آل البيت الكرام، مِن حَمَلَة المنهج الأبوي النبوي المعتدل شيوخ النمط الوسط وسُفُن النجاة في طوفان التسييس والتدنيس، ولهذا فإننا نصرخ اليوم في وجوه الشر وأبواقه، وننادي أحفاد الشجرة الطيّبة أينما كانوا وحيثما كانوا: احذروا اندفاع المحبين الغلاة، فهم أداةُ هدمٍ ودمارٍ، كما قَدْ حذّرنا آباؤنا وعلماؤنا مِنِ انتفاع المُبْغضين البغاة مَنْ أذاقوا آل البيت ومَنْ سار في طريقهم العذاب والنار في عصور الهتك والاستهتار، ولا زالوا خَلْف أقنعتهم قابعين بين الديار.

إنَّ هذه الوريقات التي تحمل وجهة نظري المتواضعة تهمُّ الراغبين في النجاة والسلامة فقط، وأكرر هذا القول: إنها تهمُّ الراغبين في النجاة والسلامة فقط، أما غيرهم فلا، ولكنها من باب إقامة الحجة وللعلْم والإحاطة لا غير.

إنني أعلم بيقين أنَّ مِنْ آل البيت اليوم ومن غيرهم مَـنْ لا يرغـب الـسلامة والنجاة من وجهة نظرنا، بل ربما اعتبر هذا العرض تـدخّلاً جبانـاً وجهـلاً بينـاً وانحيازاً في تحليل المواقف ولغة عاطفية خالية عن العقلانية الواعية.

وأستسمح لنفسي العُذْر من كُلّ ذي علمٍ ووعي أصاب الحـق وأخطـأت في فهمه، كما أطلب الدعاء بالهداية ممن عرف الـصواب وتحـلى بـصفاته وحقيقتـه، فلست بمتأخر عن صواب ولا مستعجل في فصل خطاب، والحقُّ أحقُّ أنْ يُتَّبَع، وهو كذلك، وهذا ما يقوله الكثير، ويسعون – كما يقولـون – في سـبيل تحقيقـه، ولكن الوقائع أثبتت سقوط العديد والعديد في مضلات الفتن، وبقـي الـشيطان في كل الأحوال هو المستثمر الحقيقي للمواقف والاتجاهات.

وبما أن الأمر هامٌ وضروري، فإني أضع هنا ما استقصيته مِنْ مواقف سـادتنا آل البيت الطاهر أنفسهم متجرداً عن اندفاع المحبّين وشطط المبغضين، ومـشدداً على مسألة التأمل الواعي لهذه المواقف مبتدئاً بتلك اللحظة المباركة التـي وَضَـعَ فيها رسول الله ﷺ لِحافه على أهل بيته قائلاً «اللهم هؤلاء بيتـي وحـاميتي»، وفي رواية: «...وخاصتي، فأذهب عـنهم الـرجس وطهّـرهم تطهـيراً» قالهـا ثـلاث

مرات، قالت أمة سلمة: «فأدخلت رأسي في الستر فقلت: يا رسول الله: وأنا معهم؟ فقال: إنك إلى خير» مرتين[1].

إن هذه الشجرة مباركة بإرادة الله، وبإرادة الله فقط، ولن تقوم بركتها بإفراط المحبّين، ولا تسقط قيمتها بِبَغْضِ المُبْغضين، فهذان الطرفان يختصمان ويتنازعان، ويحشران كتاب الله وسُنَّة نبيهﷺ في معركة الصراع بينهما، كما يفسران حوادث التاريخ – التي كانا طرفاً فيها – وفق الأمزجة والعواطف والمصالح، مستثمرين (آل البيت) – كاستثمارهما للقرآن والسُنَّة – وقوداً لإنجاح معركة البغض

---

(١) أخرج أحمد في المسند (٦/ ٢٩٢) من حديث عطاء بن أبي رباح قال: «حدثني من سمع أم سلمة تذكر أن النبيﷺ كان في بيتها، فأتته فاطمة ببرمة فيها خزيرة فدخلت بها عليه، فقال: ادعي زوجك وابنيك. قالت: فجاء علي والحسين والحسن، فدخلوا عليه، فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة وهو على منامة له على دكان تحته كساء له خيبري قالت: وأنا أصلي في الحجرة، فأنزل الله ﷻ هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣]، قالت: فأخذ فضل الكساء، فغشاهم به، ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، فأذهب عنهم الرجس، وطهِّرهم تطهيراً. قالت: فأدخلت رأسي البيت وقلت: أنا معكم يا رسول الله. قال: إنك إلى خير إنك إلى خير» ،وأخرجه الترمذي في سننه (٥/ ٣٢٨)، والحديث له شواهد عن جماعة من الصحابة.

الطائفي والعِرقي فيما بينهما، ولو على حساب إخراس آل البيت أنفسهم، فالتحدّي لا يسمح بالتنازل، كما أن التعدّي يخلط الحابل بالنابل.

إن المُحب المُفْرِط والمُبْغض المفرِّط ذراعا تسييسٍ هالكتان يخترقهما العدو المستثمر لإطالة رحلة الغُربة بين المسلمين وإسلامهم، ولإضعافهم جميعاً وإشغالهم عن لُبّ الديانة وأهداف التديّن، وقد نجح هذا المشروع أيّ إنجاح، وبرزت فاعليته في العالمين العربي والإسلامي منذ زمن بعيد، واستفاد منه الشيطان أيّ استفادة.

وبه ادعى المبغضون التزامهم بالكتاب والسُنَّة، وأن التزامهم بها كافٍ لوقوفهم بديلاً عن مفهوم الإفراط في العرقية والسيادة والتميز العرقي كما يقولون، وادَّعى المحبُّون التزامهم في الإفراط بحُبّ آل البيت لأنهم حملة الكتاب والسُنَّة والثقل الأصغر، والجديرون بالوراثة والخلافة والقيادة، فلَعَنوا وشذُّوا وشَتَموا واستعدَوا وأحبّوا فَغَلَوا وأفرطوا وخبطوا وخلطوا..

والقرآن يحكي القضية المتماسكة بوصفٍ غير وصف الفريقين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا

﴿بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام:٨٩] والقوم الذين وكّلهم الله بهذه القضية الثلاثية هم سُفُن النجاة[1] ومن في دائرتهم؛ اللهم اجعلنا منهم.

فالكتاب والسُنَّة معادلان يفتقران إلى المعادل الثالث، أما الإفراط فمعادل سيء، كما أن التفريط مثله في السوء والمصير، ولكن الآية جعلت المعادل الثالث هو (النبوّة)، والنبوة هي الأخلاق المحمدية لا غيرها، ولا يحملها غير رجال النمط الأوسط ومن سار على هديهم ونهجهم،وكان منهم أئمة آل البيت رضي الله عنهم وأرضاهم، فقد رَوَى ابنُ عبد البر أنه لما احتضر الحسن بن علي رضي الله عنه قال لأخيه الحسين رضي الله عنه: «يا أخي: إن أباك استشرف لهذا الأمر فَصَرَفَهُ الله عنه، ووُلّيها أبو بكر ثم استشرف لها وصرفت عنه إلى عمر، ثم لم يشك وقت الشورى أنها لا تعدوه فصُرِفَت إلى عثمان ، فلما قتل عثمان بويع ثم نوزِع حتى جرّد السيف، فما صَفَت له، وإني والله ما أرى أن يجمع الله فينا النبوّة والخلافة، فلا أُعرفن ما استخفك سفهاء الكوفة فأخرجوك»[2].

هذا موقف أحد رجال آل البيت الخلفاء وقد قرر أن يضع موقف آل البيت الحقيقي أمام الأمر الواقع فقال: «...ما أرى أن يجمع الله فينا النبوة والخلافة»،

(١) تقدم البيان في (سُفُن النجاة).

(٢) انظر الاستيعاب لابن عبد البر (١/ ٣٧٦، ٣٧٧)، تاريخ الخميس، الجزء الثاني.

وكأنه يقول بلسان حاله وفعاله ومقاله: بأيهما نضحي مـن أجـل اسـتمرار شَرَف الأمانة؟ فكان الجواب التضحية بالخلافة كقرار مقابل الاحتفاظ بـشَرَف النبـوّة للاستقرار، فكان الأمر كذلك، ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الرعد:١٧] .

وأما أهلُ الإفراط فقد تجـرؤوا عـلى الحَـسَن رضي الله عنـه ذاتـه لمـا خـالَفَ رغبتهم في الحَرْب والثأر سـاعة تنازلـه عـن قـرار الحكـم وقـالوا لـه: «يـا عـار المؤمنين» فقال لهم: «العارُ خير من النار»، وقال آخر: «يـا مُـذِل المـؤمنين» فقـال «لَسْت بمُذِل المؤمنين ولكني كرهت أن أقتلكم عـلى المُلـك»[1]، وأيَـدت النبـوّة

(١) قال مالك بن ضمرة للحسن بن علي عليه السلام: «الـسلام علـيكم يـا مـسخِّم وجوه المؤمنين. فقال: لا تقل هذا. وذكر كلاماً يعتذر بـه رضي الله عنـه، وقـال آخـر: يـا مذل المؤمنين. فقال: لا ولكن كرهت أن أقتلكم على الملك» وانظر المـستدرك (٣/ ١٧٥) وسير أعلام النبلاء (٣/ ٢٧٢).

هذه العبارة هامة جدا في تحديد القرار، وأنه لا يـستحق التـضحية بالـشعوب.. وأي ملك كان يتحدث عنه الإمام الحسن آنذاك؟ هل هو ما ينازعه فيـه الـضد آنـذاك؟ أم مـا كان يفتقر إليه ليصل إلى امتلاكه؟

لقد كان الحسن متربعا على كرسي الخلافة وإماماً لها وللديانة وبيده بيعة القبائل وأهل الحل والعقد، ولا ينقصه تجيـيش الجيـوش ولا آراء العقـلاء والقـادة، وإنـما كـان الأمـر المتوقف عليه إصدار الأمر بالقتال.. فقط.. فماذا فعل؟ ومن الذي عارضه في قـراره مـن

موقفه الشجاع: «إن ابني هذا سيدٌ وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين»[1]، فأي الموقفين أدعى للاتباع؟

وفي الجانب الآخر: يروى أن أهل الكوفة كاتبوا الإمام الحسين رضي الله عنه ودعوه للقدوم عليهم، وحمّلوه بيعة اثنا عشر ألفاً من شيعته في عنقه، وبعثوا إليه من يستثير مسؤولياته[2]، وكان الحسين رضي الله عنه قد خرج ومعه عبد الله

أهل الحل والعقد؟ هل يعقل أن يضع الجميع أيديهم في يده للبيعة والبيعة مسؤولية شرعية ثم يختار الإمام الحسن التنازل عن الحكم للامتلاك ويوقع الاتفاقية بما عرف بالصلح بين الفئتين المتقاتلتين؟

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ٧٩ فتح) وأبو داود في سننه (٥/ ٢١١) والنسائي في سننه (٣/ ١٠٧ سيوطي) وأحمد في المسند (٥/ ٣٨) من حديث أبي بكرة.

(٢) في الطبقات لابن سعد (٥/ ١٤٥) عن يونس بن أبي إسحاق عن أبيه، وسمى طائفة، ثم قال: «فكتبت جوامع حديثهم في مقتل الحسين قال: كان أهل الكوفة يكتبون إلى الحسين يدعونه إلى الخروج إليهم زمن معاوية، كل ذلك يأبى، فقدم منهم قوم إلى محمد بن الحنفية، وطلبوا إليه المسير معهم، فأبى، وجاء إليا لحسين فأخبره وقال: إن القوم يريدون أن يأكلوا بنا ويشيطوا دماءنا، فأقام الحسين على ما هو عليه متردد العزم، قال: وقدم المسيب بن نجبة وعدة إلى الحسين بعد وفاة الحسن، فدعوه إلى خلع معاوية، وقالوا: قد علمنا رأيك ورأي أخيك. فقال: أرجو أن يعطي الله أخي على نيته، وأن يعطيني على نيتي في حبي جهاد الظالمين.

بن الزبير من المدينة إلى مكة[1]، وكان هناك من أبناء الصحابة من أشار عليه بعدم الخروج[2]، وقد أرجعهم الإمام الحسن رضي الله عنه من الكوفة إلى المدينة بعد تنازله إذ أنهم خَذَلوا أباه، ونَصَحَهُ بعضهم بالخروج إلى اليمن لأن فيها جُملة مِنْ أنصاره، ولم يُعْرَف عنهم الغدر، ولكنَّ الحسين بَعَث ابن عمه مسلم بن عقيل لاستطلاع أخبار العراق ولكنه قُتِلَ بعدَ أن غَدَرَ به أهل الكوفة كما توقَّع بن عباس وغيره[3]، والتقى الإمام الحسين في الطريق بالشاعر الفرزدق وهو قادمٌ

(١) في سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٩٥): وخرج الحسين وابن الزبير لوقتهما إلى مكة، ونزل الحسين بمكة دار العباس، ولزم عبد الله الحجر، ولبس المعافري، وجعل يحرض على بني أمية، وكان يغدو ويروح إلى الحسين ويشير عليه أن يقدم العراق ويقول: هم شيعتكم. وكان ابن عباس ينهاه.

(٢) ممن أشار على الحسين بعدم الخروج عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير في بادئ الأمر، وأبو سعيد الخدري، وكلمه جابر بن عبد الله، وأبو واقد الليثي، وعمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية، وعبد الله بن مطيع،بل قال ابن المسيب: لو أنه لم يخرج لكان خيراً له.

(٣) انظر سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٩٩) في تاريخ الأمم والملوك (٣/ ٢٩٦) للطبري، قال الحسين للفرزدق: بين لنا نبأ الناس خلقك. فقال الفرزدق: من الخبير سألت، قلوب الناس معك، وسيوفهم مع بني أمية.

من العراق، فسأله عن أهلها، فقال: «قلوبهم معك وسيوفُهم عليك»، ونصحه ابن عباس أن لا يَخْرج بنسائه، لكن الحسين أبى، وأرادَ أن يُجنب الحجاز مآسي الاقتتال، وجرى أمر الله كذلك، ولم يَنْجُ مِنْ هذه المذبحة إلا علي زين العابدين رضي الله عنه[1] ضمّته عمّته السيّدة زينب بنت علي رضي الله عنهما، وكان علي زين العابدين مريضاً في الفِراش، ومِنْهُ امتدَّ نَسْل رسول اللهﷺ مِنْ جِهَة الحسين رضي الله عنه، ومنهم سَلَفنا الصالح من ذريّة المهاجر أحمد بن عيسى.

ومِثْل هذا جرى مع الإمام زيد بن علي رضي الله عنه فقد قرّر الخروج على هشام بن عبد الملك، وكان زيد شجاعاً مقداماً لا يقبل الضَيْم ولا يرضاه، ولكن الذين استعان بهم من أهل الكوفة تخلوا عنه في اللحظات الحرجة فواجه زيد رضي الله عنه جيش يوسف بن عمر الثقفي وحده ومعه قلّة قليلة مِنَ المخلصين له حتى قُتِلوا جميعاً، وقُتِل من بعده بسنوات ابنه يحيى بن زيد بخراسان وعمره ثمانية عشر عاماً، وأضافت هذه المواقف دلالة جديدة على سلامة مواقف سادة

(١) وحسن بن حسن بن علي وله ذرية، وأخوه عمرو ولا عقب له، والقاسم بن عبد الله بن جعفر، ومحمد بن عقيل، فقدم بهم وبزينب وفاطمة بنتي علي، وفاطمة وسكينة بنتي الحسين، وزوجته الرباب الكلبية والدة سكينة، وأم محمد بنت الحسن بن علي، وعبيد وإماء لهم. انظر سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٠٣).

الصلح وبقية السيف في حفظ الديانة والتـزام الاعتنـاء بالأمانـة حيـث لم يظفـر الخارجون بالمطلب ولم يجرد أمثالهم وأشـباههم معهـم الـسيف للحـصول عـلى مكسب من آل البيت.

إنها نماذج السلامة آثرت الآخرة عـلى الـدنيا، وأكّـدت لنـا مفهـوم الخلفـاء الراشــدين المهــديين في الأجيـال اللاحقـة كثمـرة متـصلة الأسـانيد بـالمتبوع الأعظمﷺ.

ألم يقلﷺ: «عليكم بسُنتي وسُنَّة الخلفـاء الراشـدين المهـديين مـن بعـدي، عضوا عليها بالنواجذ، فإن من يَعِشْ منكم فسيرى اختلافاً كثيراً»(١).

إذن وقد صدق رسول اللهﷺ وبرزت شواهد الاختلاف الكثير، وتنـاحرت الأسرة المسلمة تحت مسميات التجزئـة والتفرقـة والإفـراط والتفـريط مـا أدى بالجميع إلى التلاف وإلى إضاعة الميراث الديني ذاته بذهاب أهله وقـتلهم، فهـل هناك من مخرج؟

---

(١) أخرجـه أحمـد في المـسند (٤/ ١٢٤) وأبـو داود (٥/ ١٩٢-١٩٣) والترمـذي (٤/ ١٤٩) وابن ماجه (١/ ١٧) في سننهم، والدارمي في الجـامع (١/ ٥٧) مـن حـديث العرياض بن سارية .

مخرجنا أن نقتدي بما دعانا إليه الأب الأولﷺ من التمسك بأسلوبه وهديه، وطرائق معالجته القائمة على الرحمة والمحبة والسلام داخل المجتمع الإنساني الواحد، ونقتدي بالخلفاء الراشدين المهديين، ﴿ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام:٩٠]، والخلفاء الراشدون هم الأئمة والقدوة فمن أخذ السند والاتصال برسول اللهﷺ في علمه ومواقفه إلى يوم الدين.

فهل من مستجيب؟ اللهم آمين... فهذا هو موقف آل البيت الأثبات، وهؤلاء هم أهل النمط الأوسط المشروع.

أهل الكساء رضي الله عنهم

هُمْ نخبة آل البيت الأطهار، ومقدمة العترة الطيبة التي حق للإسلام والمسلمين بها العزة الافتخار، نالت مرتبتها القعساء بفضل الله ورحمته ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨] ولم ينالوا مقامهم بسلطان.

أراد الله سبحانه وتعالى أن يجعلهم أئمة يُقتدى بهم فكانوا بأمره سفن النجاة للشعوب ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء:٧٣]، وهم بلا شك خاصة آل محمد الذين ألقى النبيﷺ عليهم كساءه، وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»[١].

---

(١) فهم العلماء من سياق الآية أمرين: أهل البيت (ساكنوه)، أهل البيت (أهل نسبه).

ومنهم من اعتبر التطهير جامعاً للأهل من النساء والأبناء والبنات، وهم من حُرم الصَّدَقَة ومن سَكَن كزوجات معه، ومنهم من اعتبر التطهير خاص بالخمسة وهم:

وقد أخرج الله منهم الكثير الطيب، وأقام بهم حجته على خَلْقِه، وجعلهم أئمة هدى وعلم في سائر الأزمنة والعصور، وخاصة في تلك الأزمنة التي كانت الأمة تملك فيه قرار الحكم والعلم والولاء، ثم انقطعت هذه الثوابت في العالمين العربي والإسلامي بانقطاع قرار دولة الخلافة، القرار الذي كان يحمي الحقوق ويقيم الواجبات في كل شؤون الدولة الإسلامية.

رسول اللهﷺ، وعلي رضي الله عنه، وفاطمة رضي الله عنها، والحسن والحسين رضي الله عنهما، وما تفرع منهم.

واتسع كلا الفريقين في شواهد الاستدلال، وأخرج ابن جرير الطبري عنه مرفوعاً بلفظ: «نزلت هذه الآية في خمسة: فيّ وفي علي وحسن وحسين وفاطمة» و ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣]، ولمسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها [انظر صحيح مسلم (٢/ ٣٦٨)] خرج النبيﷺ ذات غداة وعليه مرط مرجل من شعر أسود فجاء الحسن بن علي رضي الله عنه فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾.

وللترمذي وقال: حسن صحيح عن أم سلمة رضي الله عنها: «أن النبيﷺ جلل على الحسن والحسين وعلي وفاطمة رضي الله عنهم كساه وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وحاميتي – أي: وخاصتي – أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. قالت أم سلمة: وأنا معهم يا رسول الله؟ قال: إنك على خير»[تقدم تخريجه].

وكـان لهـذا الانقطـاع الخطـير تغـير وتبـدل وانقـلاب في كـل شيء يتعلـق بالإسلام سواء في مستوى القرار أو في مستوى الاسـتقرار، ومـن ذلـك مـسألة العلاقة بين آل البيت الكرام وبين المسلمين عموماً وحملة القرار خصوصاً.

ونحن اليوم نجد العشرات من المؤلفـات الجديـدة المتكلّمـة عـن آل البيـت وحقوقهم وما يجب عليهم أن يكونوا عليه من التزام بالعقيدة والشريعة لما طـرأ عليهم – كما يُقال – من استتباع لـبعض الانحرافـات المـشار إليهـا في صـحافة المرحلة بمسميات عديدة، هذا من جانب، ومن جانب آخر نجد مدارس أخرى تنتحب وتصرخ وتولول على حُب آل البيت وحسن التعلق بهـم، والبكـاء عنـد ذِكْرِهِم، وضرب الصدور والوجوه في ذكريات مقتلهم وإبادتهم، وتنـسف بعـد ذلك كل ما تعيشه الأمة منذ عهد الخلافة إلى هـذا العـصر الغثـائي عـلى رؤوس المسلمين باسم آل البيت المظلومين، وبالبديهة يصير الأمر كله لدى مثـل هـؤلاء معلّقاً بعودة آل البيت إلى موقع القرار ولو على جماجم الشعوب ودماء الأمم.

وينتظر الكل ساعة المواجهة بين الفريقين، وهي ساعة قادمة بـلا شـك، ولا يعلم موقعها ومركزها إلا الله، وأكثر ما نلاحظه في خـصوصيات الحيـاة العامـة تسعير المشكلة وجعلها ورقة تأثير وإثارة بين قوتين مجتمعتين من جهتين:

الأولى: قوى الشر في العالم وما تعمله من رعاية المتناقضات وتسييسها لخدمة السياسة الأنوية في العالم.

والثانية: حملة وجهة النظر المعاكسة من طوائف المسلمين وتأجيج نار الحقد بينهم وزعزعة الاستقرار ليوم التصفية والثأر.

ولأننا قد أشرنا بأن آل البيت هم خط النمط الأوسط غير هذين الخطين، فالمسألة ليست على علاتها، وأتمنى أن يدرك بعض القراء حقيقة هذا الأمر، أما كل القراء فلا، فالغالبية يقرؤون كل شيء بعين انتماءاتهم فيختلط عليهم الأمر ولا يصدقون ما يدلهم على حقيقة أو من يهديهم بصدق عليها.

وتظل المشكلة قائمة مع كل مرحلة وجيل لأن كل جيل قد قرأ أحداث التاريخ ومواقفنا عنه من خلال الواقع المسيس ذاته، فجاءت المفرزات والمخرجات من ذات النوع والصفة للأسف، وإنّا هنا نقول للجميع: إلى متى ونحن في المغالطات؟ وإلى متى وفقهاء المغالطة حيثما كانوا يتحركون في الضوء أو في الظلام لحقن الشعوب المسلمة بفقه المغالطة في كافة ما ورثوه وعلموه وتعلموه وعبدوا الله عليه، وما أحبوه وما أبغضوه، مع أنَّ خَلْف هؤلاء الفقهاء يَقِف الثلاثة الحُلفاء (بالحاء): الشيطان، الدجّال، الكُفر وسماسرته، وساسته هم الكُفّار والمنافقون.

لقد أشبع فقهاء المذاهب الإسلامية كُتُب العِلم في شأن العقائد والعبادات والمعاملات والجنايات والأنكحة والمواريث، واختلفوا في هذه المسائل استناداً إلى فهم النصوص والأحجيات الشرعية، وقَبِلَت الأمَّة اختلاف العلماء، وعَبَدَتِ الله تعالى، وأقامت قوانين الشريعة على ما ثَبُتَ مِن اجتهاد أولئك المنصفين، لا المُرجفين.

وَمِنَ الخطأ الفادح أن نربط بين فقهاء العبادات والمعاملات وغيرهم – في ديننا – بهذا الثلاثي الخطير، ولكن الحقيقة أن فقهاء الديانة يختلفون في المواقف الفقهية، فمنهم فقيه أمانة ومنهم فقيه خيانة، ورُبَّ حامل فقه ليس بفقيه.

ومن فقهاء الخيانة (فقهاء المغالطات) وهم صنفان في مدارس الولاء والبراء: صِنْفٌ نَهَجَ بالفقه نحو أقصى درجات الإفراط، وصِنْفٌ اتجه بالفقه لأقصى درجات التفريط.

وهؤلاء هُمْ رُسُل الثلاثة الحلفاء، والداعمون لسياساته في الشعوب المسلمة سواء كان الفعل منهم بعلم وإدراك أو كانوا على حال من العماية والسذاجة والانتصار للطباع والفهوم الذاتية.

وحيثما أطل المسلم الواعي في هذه العصور القريبة على الأمة الإسلامية ومخرجات علاقتها سيجد أن تسييس (الثلاثة الحلفاء) قد احتضن طرفي الإفراط

والتفريط في العالمين العربي والإسلامي وأطلق لهما حرية الحركة والتفاعل مع الظروف، وجعلهما مظهر الحركة الفاعلة في أساس العلم أو الحكم باسم الإسلام.

الثلاثة الحلفاء وموقع فقهاء المغالطة من خدماته

مهمة آل البيت ممن أسهاهم الإمام علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه (بقية السيف) - ومِثْلُهُم سادة الصلح الواعي ـ هو إبراز خطورة الحاضر والمستقبل عندما تحتدم الأمور، ويجلب الشيطان على الجميع بخيله ورجله؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة، حيث إن الإفصاح عن الأمر والإيضاح يسهم في إجلاء عماية العقول والقلوب لمن كان في عماية، أما المتعمد والمشترك في استثمار أو في عائدات استثمار الشعوب والعقول والقلوب فلن يتراجع، ولن يكون له نصيبٌ من توبة، لأنه يدرك حجم العمالة التي يستثمرها ويستلم عائداتها على حساب المظلومين عموماً وليس فقط على حساب من يسمونهم بـ(المظلومين من آل البيت).

فآل البيت – وإنْ كانوا مظلومين – لا يرجون النصرة إلا مِنَ الله، ولا يبحثون عن نصير يعيش على حسابهم ويأكل ويشرب ويحكم ويتبختر في الأرض باسمهم على دماء الشعوب والكذب على علاّم الغيوب، إلا إذا كان سيعيد ذواتهم إلى عالم الحياة فيستمتعوا بالحق المفقود ويحققوا وعد الله الموعود، وتلك مسألة أخرى.

أما غير ذلك فلن يكون هذا الداعي - في قاموس الديانة - إلا شيطاناً، أو أحد عملائه، أو أحد وكلائه في العالم الإنساني، وهؤلاء مجهزون بكافة وسائل الاكتساح والاجتثاث لحرق الأخضر واليابس في المستقبل القريب ، ومعهم كثير من جنودهم وأشياعهم وأتباعهم من ضحايا آل البيت المغرر بهم والمثقفون ثقافة الأنظمة والمؤسسات والجمعيات والجماعات ممن احتواهم الإبليس لمراحل الخدمات (الثقافة المتحولة) وقد سبق لهذا النموذج الخدماتي في صورته المقابلة لهذه الصورة الجديدة أن يكتسح المرحلة المعاصرة باسم الكتاب والسُنَّة وباسم التوحيد الخالص النقي عن الشوائب كما يقال، وتحقق بهذا الاحتواء كل شيء رسمه (الثلاثة الحلفاء) في مشروع الغثائية المتأسلم.

لقد نجحت الثقافة المتحولة في تحجيم موقع آل البيت وإقصائهم مع مؤسساتهم الأبوية التقليدية ثم إدانة الثقافة الأبوية وتشويه حقائقها لتصبح شِرْكاً وكُفْراً وبدعةً وضلالة، وليبرز بالضرورة (فقهاء القصعة) - وهم البديل المهيأ - لنشر الثقافة المتحولة (فقه المغالطة) التي هي ربيبة الدّجل والتمويه وقلب الحقائق، وتم ذلك بنجاح، وبتحقيق كامل الأرباح في سوق الأبلسة العالمي والإقليمي والمحلي، واحتشد العسكر من سائر الفئات الاجتماعية، ومنهم جزء من آل البيت الضحايا الذي كان حظهم التعليمي والثقافي جزءا من

مشروع الثقافات المتحولة لإنجاح معركة التوازن ضد المدرسة الأبوية التقليدية ومظاهرها الاجتماعية.

وإذا كنا الآن في مرحلتنا المعاصرة نتكلم عن الثقافة المتحولة وفقهاء المغالطة من نموذج خدمات التفريط وقلب الحقائق، فإننا نحتاج ولو من بعض الوجوه إلى النظرة الواعية في جذور المشكلة ساعة تسليم الثلاثة الحلفاء زمام الحركة والانتشار في المرحلة.

ففقه المغالطة جاء على ردم واسع من الجثث والضحايا وإسالة الدماء طيلة فترة التثبيت الإبليسي لمجموعات الخدمات السياسية والعلمية والثقافية والعسكرية، وكانت هذه الفترة القلقة غير معلومة لكثير من ضحايا الثقافة المتحولة اليوم، إلا أنهم ينعمون بثمراتها ويأكلون ويشربون من عائداتها، وتنبت أبشارهم ولحومهم من مشاتل خدماتها إلى اليوم، فهم جزء لا يتجزأ منها برغم انخداعهم وجهلهم بالحقائق.

وقد أدت هذه المرحلة دورها الخدماتي بنجاح، ورضي الثلاثة الحلفاء كل الرضا عن الجهود المبذولة من فقهاء المغالطة وشيوخ المؤسسات وحملة القرار، وهي وقد حققت بلا تحفظ كافة الأرباح المادية من العائدات النفطية وشبه النفطية ومن خدمات التسويق والزفير والشهيق والتعويق والتطويق.

ومهمتنا نحن (بقية السيف وسادة الصلح وَمَـنْ تَبِعَنـا بإحـسان) أن نلفـت النظر إلى ثقافة التحول والتموّل التي رافقت الحملـة المـشتركة مـن حملـة القـرار ومن فقهاء المغالطة لترويض شعوب الأمة منذ بداية مرحلة الغثاء المسيس حتـى مرحلتنا المعاصرة التي بدأ (الثلاثـة الحلفـاء) يعيـدون ترتيـب الأوراق لخـوض معركة أخرى ومن نفس النموذج المتآمر، ولكن بلُغَةٍ ووسائل وتوجيـه معنـوي أكثر أثراً وأشد خطراً.. إنها مسألة المظلومين مـن آل محمـد صـلى الله عليـه وآلـه وسلم..

إن مسألة المظلومين من آل محمدﷺ ليست ورقة يلعب بهـا فقهـاء القـصعة ومستثمرو المراحل، ولكن إبليس الواعي ووكلاءه لا يدخلون البيـوت إلا مـن أبوابها، فهم بادئ ذي بدء يهيئون من داخل (آل محمد) ـ ومن خـلال مـا يـسمى بثقافة التحول ـ من يحرك الأمور في التيـار الجـاهز علمانيـة أو علمنـة أو عولمـة، وهي الأوعية العالمية لرعاية المرحلة بما فيها من المتناقضات الزمنية، وقـد فعلـوا ذلك وبنجاح باهر، حتى كونوا لهذا الاسـم شـعاراً ومنـاراً وقـراراً ولكـن مـن منظور (فقهاء المغالطة) أكلة القصعة، حتى لا يخرج المشروع عن هدفه الذي هو دمار الأمة المحمدية من داخلها.

ومشروع دمار الأمة ليس جديداً، ولكنه عريق عراقة الأبلسة ووكالاتها، إنما الجديد هو وسائل هذا المشروع وأساليب إنجاحه في الشعوب حتى يصبح لدى عُصبة الحركة السياسية مشكلةً، ولدى ضحايا المذاهب والعصبيات مطلباً، ولدى الإعلاميين مادةً دسمةً للنقل الخارجي والتغطية الإعلامية، وينقسم الناس فيه انقسام مؤيد ومعارض، وهكذا تتحقق المقولة الإبليسية (فرّق تسد).

ويغلي المِرْجَل بما فيه، ويتصاعد الدخان، وتموج المرحلة بمن فيها عبر وسائل الإعلام في لقاءات الوفود وتدخلات الأصدقاء وأصدقاء الأصدقاء ورموز المصالح المشتركة حتى ينفجر الأتون الحارق بمن فيه، ويحدث المحظور، ويعاد تشكيل الواقع المضطرب مرة أخرى ولكن بعيون المدبرين للمؤامرة أنفسهم، وبأيدي حملة الحطب المؤججين لنار الفتنة بذواتهم[1].

ونحن لابد علينا في كل مرة أن نعيد ترتيب أنفسنا وعلمنا ووعينا وأساليب حياتنا كما هو مقرر للمرحلة لأجل أن نعيش، وربما كان عيشنا يقتضي أن نساوم

---

(١) قال ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، لا يؤخذ الرجل بجريرة أخيه ولا بجريرة أبيه» [أخرجه النسائي في سننه (٧/ ١٢٧ سيوطي) من حديث ابن عمر رضي الله عنه وصوّب النسائي إرساله، ثم أسنده من حديث مسروق مرسلاً، وإسناده صحيح].

وأن نقاوم، ولا مخرج من هذا ولا ذاك إلا إذا كنا قد تعلّمنا مِنْ مدرستنا الأبوية موقف الحالة وأدب المواقف، أما مدارسنا التعليمية فلا تعلِّم شيئاً من هذا لأنها قد نهضت لتدبير الأجيال وفق وقود المرحلة، بل ووفق مرادات فقهاء المغالطة في المرحلة إلا القليل والقليل النادر.

وهكذا نرى المئات من أحفاد (بقية السيف وذراري سيّد الصُلح الإمام الحسن) وهم في سوق العرض والطلب يعملون على تحقيق أهداف فقهاء المغالطة وثقافة التحول، وربما كان أكثرهم حذراً من لا يصطدم بالآخرين وهو يعلم ما ينفذه وينشره أو يطويه من الركام الثقافي السلبي.

إن رغبتنا هنا في طرح هذه القضية وبهذا الأسلوب ليس استدرار عطف المحبين الذين أهلكونا في مسيرة التعلُّق والمحبَّة، ولا استثارة غضب المبغضين الذين استقذروا حقنا في الحياة والكلمة الطيبة، وإنما لتقرير المنهج المعتدل الذي يخصنا في إقامة ميزان العدل بعد التجربة الواعية لأسلافنا الصالحين، فلربما كان فيها للأمة مخرجاً من الإفراط والتفريط أولاً، ثم تطميناً لخواطر المصممين على إخراجنا من ساحة الحركة، لأننا لا نرغب في الحركة التي يتحركون من أجلها إطلاقاً، ولا مجال عندنا للمنافسة فيها، وأمر آخر لا بد من معرفته: وهو إبراز حقيقة مفهومنا السلمي الإيجابي لكافة المنتمين لـ(بقية السيف وسادة الصلح)

أن يكفوا أنفسهم عن أتون الحرب التي لا منتصر فيها غير الثلاثة الحلفاء: الشيطان، الدجال، الكُفر والكافر.

إننا عندما نَذْكُرُ هذه الجزئية (الكفر والكافر) نشير دائماً إلى خطورة عقيدة الكفر على الإنسانية، وأنها مشروع الشيطان ذاته وليست مشروع الإنسان الآدمي، وفي هذا المجال قال تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الزُّمَر:٧]، فالكافر آدمي مغرر به ومخترق من كل الوجوه، ويحتاج إلى من ينقذه من المشروع الثلاثي وما يترتب عليه في الحياتين، ولهذا نجد أنفسنا ملزمين من كل الوجوه أن نحذر الكافر من الكفر، ونحذر المسلمين عموماً والمنافقين أو من كان في دائرتهم فهؤلاء جميعاً يحققون للشيطان مقصوده في العالم الإنساني وبجدارة.

إن ثقافتنا نحن (بقية السيف وسادة الصُلح ومَنْ تَبِعَهُم بإحسان) منطلقة من تجربة واعية مبتدئة بقضية الحُكم ثم العِلم ثم الولاء والبراء ثم قضية المحبَّة المشروعة من عند الله، وهذا الحشد من المسميات هو أساس الأبنية لما نسميها بالمدرسة الأبوية، وهذه الثقافة ليست حكراً على عائلة محدودة أو عرقية بعينها، ولكنها لا تهم أحداً من الآخرين، فلهذا لا يهتمون بقراءتها ولا بالنظر الواعي

في شؤونها من هذا المنطلق الفقهي الخاص، وإذا ما هم قرؤوها لسبب أو لآخر تجد أن غالب هذه القراءات مشوبة بشوائب النفس والهوى وعقدة الحساسية من العِرْق والنَسَب والأصالة، وهذه القراءات حاجبة لحقائق معرفة سرّ الأبوية الشرعية في العقول والقلوب، أما الذين أحسنوا هذه القراءة واشتغلوا بها من الوجه السلبي وعملوا على تحليل وتعليل معانيها ومعرفة مبانيها وملاحقة رجالها وإخراس ألسنة ناطقيها فهم (الثلاثة الخلفاء).

ولأنهم فعلاً قد أحسنوا هذه القراءة من الوجه السلبي فهم أيضاً معنيون بشل حركتها ومطاردة رموزها وإيقاف أثرها وتأثيرها وإيجاد البدائل الواعية القادرة على سد الفراغ وإشغال القوافل المنطلقة في معركة الحياة لإتمام المشروع الأنوي العالمي ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٦٢].

إذن ولأننا نحن (بقية السيف وذراري سيد الصُّلح الإمام الحسن) وأتباعهم من أهل النمط الأوسط لنا ثقافة وثوابت وتأصيلات هامة للحياة وما بعدها فإننا مسؤولون أمام الله تعالى على إبرازها وإشهارها ولو من باب إقامة الحجة ولمجرد العلم والإحاطة فقط.

ولعل أول ما نحن بصدده في إبراز هذه الثقافة الواعية أنها تعمل على رفع مستوى الفرد بالعلم والعمل والإخلاص والورع والخوف من الله تعالى إلى درجة الإحسان الذي كتبه الله على العباد في كل شيء، وإلى مفاهيم الركن الثالث من أركان الدين المعروف بـ(الإحسان) وتعريفه: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، وهذه المرتبة قائمة على ثلاثة أقسام من العلم: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين.

وثمرة هذه العلوم - بعد صدق ممارستها قولاً وعملاً ونيةً - حصول الرتبة القعساء في مراتب الترقي الشرعي لكل مسلم، وهي (الصديقية الكبرى)، وبها يبلغ الفرد في منهج آل البيت (مرتبة الإمامة).

دعونا هنا من الإفك المسيس، وَمِنْ خَلْط الأوراق لتعمية الحق، إن الذين يفعلون ذلك هم أولئك الذين يستثمرون كل شيء لمصلحة (الثلاثة الحلفاء).

هناك مدارس ومشايخ عبروا عن (آل البيت) بأساليب مريبة وألفاظ غريبة حجبت عقول الأمة المعاصرة أن تفهم حقائق الإحسان ومراتبه، فمنهم من قال: إن لهم منزلة لا يبلغها مَلَك مُقَرَّب ولا نبيٌّ مُرسل[1]،ومنهم من احتج بما

---

(١) معجم ما يخص آل البيت النبوي، د. عبد الكريم غضية.

يصفه البعض من أن رسول الله ﷺ نـورٌ ولـيس بـشر، وذريتـه كـذلك، أو أن في نسله نور يخـرج ذواتهـم عـن البـشرية الآدميـة، فيبنـي عـلى هـذا عـدم مـوتهم ووجودهم الأبدي مـع النـاس وسـماعهم لكلامهـم واسـتجابتهم لاسـتغاثتهم ونداءاتهم لهم بالمدد والمساعدة.

وتوسعت هذه الأقلام في تشويه الحقائق حتـى عميـت البـصائر والأبـصار وارتفعت درجة الحرارة الفكرية في النقل عن مراتـب آل البيـت وعـن أسـلوب النقد والتقييم لهم معاً، والحق يُقـال أنَّ هنـاك مِـنَ الكُتَّـاب وحَمَلـة الأقـلام مَـن أخرَجُوا قضية محبَّة آل البيت وذواتهم وعلمهم وأخلاقهم عن المستوى الشرعي المنصوص.

وَمِنَ الكُتَّاب أيضاً مَنْ أنكروا الفضائل والخـصوصيات والمراتـب بالكليّـة، واعتبروها من نسيج الأساطير والآلهة ليلحقوهم بالأخسرين أعمالاً.

وكتـب الخمينـي في (ولايـة الفقيـه والحكومـة الإسـلامية ص٥٢-٥٣): «إنَّ مـن ضروريات مذهبنا أنه لا ينال أحد المقامات المعنوية الروحية للأئمة لا مَلَـك مقـرّب ولا نبيٌّ مُرسَل، كما روى عندنا بأن الأئمة كانوا أنوار تحـت ظـل العـرش قبـل تكـوين هـذا العالم، وأنهم قالوا أن لنا مع الله أحوالاً لا يسعها مَلَـك مقـرّب ولا نبـيٌّ مُرسَـل، وهـذه المعتقدات من الأسس والأصول التي قام عليها مذهبنا» . ويـذكر الكلينـي «إنَّ الإمامـة فوق النبوة والرسالة والخلة» اهـ. المصدر السابق.

وهذه هي ثمرات الركام السلبي للصراع الفكري في قضية الـولاء والـبراء، وهذه هي أيضاً مادة التفجير المعد لمعركة الطائفية باسم آل البيت سلباً وإيجاباً.

ولابد أن يكون المستثمر لهذه المسألة المعقـدة بـين الـشعوب هـو الـشيطان والدجال والكفر، وقد فعل ذلك ونجح - كما سبقت الإشارة - أيما نجاح.

لكن ما هي ثقافة (بقية السيف وسادة الصُلح) في هذه المسألة؟

إن ثقافة الأئمـة مـن (بقيـة الـسيف وسـادة الـصُلح الـواعي وَمَـنْ تَـبِعَهُم بإحسان) تنظر إلى هذا الركام السلبي بذات المنظار الذي شخَّص به الإمـام عـليٌّ رضي الله عنه حال معاصريه من محبيه ومناصريه، فها هو رضي الله عنه وأرضـاه يخطب في أهل الكوفة قائلاً: «فـوا عجبـاً والله.. يميـت القلـب، ويجلـب الهـم، اجتماع هؤلاء على طلبهم، وتفرقكم عن حقكم، فقُبحاً لكم وترحاً حين صرتـم غرضاً يرمـى، يغـار علـيكم ولا تغـيرون، وتغـدرون ولا تغـزون، ويُعـصى الله وترضون)..

فإذا أمرتكم بالسير أيام الصيف قلتم هذه حمّارة القيظ أمهلنـا حتـى ينـسلخ عنا الحر، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم هذه صارة القـر أمهلنـا حتـى ينسلخ عنا البرد، كل هذا فراراً من الحر والقر؟ فأنتم والله من السيف أفر..

يا أشباه الرجال ولا رجال، حلوم الأطفال، وعقول ربات الحجال، لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم معرفة والله جرت ندماً وأعقبت سدماً، قاتلكم الله، لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيظاً، وجرعتموني نخب التهمّام أنفاساً، وأفسدتم علي رأيي بالعصيان والخذلان حتى لقد قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب.. لله أبوهم، وهل أحد منهم أشد لها مراساً وأقدم فيها مقاماً مني؟ لقد نهضت بها وما بلغت العشرين وهاأنذا قد ذرفت على الستين، ولكن لا رأي لمن لا يطاع».

ومن خطبة أخرى يقول: «إنكم والله لكثير في الباحات، قليل تحت الرايات، وإني لعالم بما يصلحكم ويقيم أودكم، ولكني لا أرى أصلاً حكم بإفساد نفسي، أضرع الله خدودكم، وأتعس جدودكم، لا تعرفون»[1].

وفي يوم مقتله رضي الله عنه أوصى آل بيته فقال: «يا بني عبد المطلب: لا تخوضوا في دماء المسلمين خوضاً تقولون (قُتِلَ أمير المؤمنين) ألا لا تقتلن بي إلا قاتلي، انظروا إذا أنا مِتُّ من ضربته هذه فاضربوه ضربة ولا تمثلوا به فإني

(١) نهج البلاغة، ص٩٦، ط. المكتبة المصرية.

سمعت رسول الله ﷺ يقول: إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور»[1] اهـ تاريخ الخميس الثاني.

وينظر إليه أيضاً بمنظار ابنه الحسن بن علي في قوله: «فوالله الذي لا إله إلا هو لقد رأيتم صوراً ولا عقول، وأجساماً ولا أحلام، فراش نار وذبان طمع، يغدون بدرهمين ويروحون بدرهمين، يبيع أحدهم دينة بثمن عنزة».

وفي قوله لأخيه الحسين رضي الله عنه وهو على فراش الموت: «يا أخي إن أباك حين قبض رسول الله ﷺ استشرف لهذا الأمر أن يكون صاحبه فصرفها الله عنه ووليها أبو بكر، فلما حضرت أبو بكر الوفاة استشرف لها أيضاً فصرفت عنه إلى عمر، فلما قبض عمر جعلها شورى بين ستة هو أحدهم فلم يشك أنها لا تعدوه فصرفت عنه إلى عثمان، فلما هلك عثمان بويع له ثم نوزع حتى جُرّد السيف وطلبها فما صفا له شيء منها، وإني والله لا أراني أن يجمع الله فينا أهل البيت النبوة والخلافة، فلا أعرفنك ما استخفك من سفهاء أهل الكوفة فأخرجوك»وفي مقولة الإمام علي زين العابدين: «يا أيها الناس: أحبونا حب

---

(١) انظر تاريخ الأمم والملوك للحافظ ابن جرير الطبري (٣/ ١٥٨) وأخرج أبو داود في سننه (٣/ ٢٨٨) وغيره من حديث عمران بن حصين قال: «كان رسول الله ﷺ يحثنا عليا لصدقة، وينهانا عن المثلة».

الإسلام، فما برح بنا حبكم حتى صار علينا عاراً»، وفي رواية: «أحبونا حب الإسلام، فوالله ما زال بنا ما تقولون حتى بغضتمونا إلى الناس»[1]، وهذه هي مواقف الأئمة رجال النمط الأوسط من محبيهم المفرطين، وقد برزت في كلماتهم خلال أشد مراحل الألم من مخالفة الأتباع للمنهج المرسوم، وكما كان لهم مثل هذه المواقف من ركب المحبين فلهم مواقف أخرى من ركب المبغضين أيضاً.

---

(١) النسب والمصاهرة بين أهل البيت والصحابة، لصاحبه علاء الدين المدري.

المدارس الأبوية ومرحلة الغثاء المسيس

إذن فمن الواجب المنصوص معرفة فقه الترقي في مراتب الإسلام والإيمان والإحسان ومن خلال العلم والعمل، ومن ثم فقه الترقي في مفهوم العلوم الثلاثة من علوم الإحسان ومنها وبها تبرز علائم مرتبة الإقامة أو الصديقية الكبرى.

وبهذه المراتب يتميز لدى هؤلاء الأئمة أسلوب المعاملة مع الآخرين، وهذه المراتب في حقيقتها مكسباً عاماً للأمة الإسلامية متى ما نهجت شروط المنهج الإسلامي الحق، وقد برز فيها الكثير من المسلمين ونالوها بشرف الاتباع وحسن العمل بالعلم.

وكانت مدارس الإسلام الأبوية في بلاد المسلمين قبيل مرحلة الغثاء المسيس تعتني بهذه الدراسة الخاصة بفقه مراتب السلوك المؤدي إلى الصديقية الكبرى ولكنها ضعفت بعد ذلك وجففت منابعها بفعل مزاحمة الثقافة المتحولة ليحل محلها البديل الغثائي المسيس.

ولم يقف الأمر عند تجفيف المنابع فحسب بل قام سماسرة الثقافة المتحولة إلى صناعة النسيج الفكري لما يسمى بفقه المغالطة ليطمسوا آثار المدرسة الأبوية من جهة، وليفسحوا المجال الرحب لثقافة الأبلسة والنقائض حتى تنفصم العرى

بين المسلمين أنفسهم بهذا الاختلاف، وقد فعلوا، وها نحن نعيش ثمرات هذا الفقه المسيس، هل هناك من يكذب بهذا؟ ربما...

لقد تناول العديد من الكُتاب صُلح الإمام الحسن، ولم يولوه أهمية من حيث كونه قاعدة أساسية في سد ثغرة المطالبة بالسلطان في ظل الخيانات، بل اعتبروه مناورة سياسية ذكية تستهدف التمهيد لثورة الحسين كما سُمّيت، ويقول صاحب هذه الفكرة: «ومن هنا يتجلى لنا بوضوح معنى حديث النبيﷺ: الحسن والحسين إمامان إن قاما وإن قعدا»[1] . فليس المقصود بالقيام والقعود الحركة الجسدية المعروفة، وإنما الحركة الفكرية التغييرية المناسبة، والتصرف الذي تقتضيه مسؤولية الإمامة في طريق الثورة ضد الباطل والطغيان الخ...»[2].

وهذا التحليل صورة ومثال لما أشرنا إليه سلفاً من اختلاف ثقافة المبررات عن ثقافة (بقية السيف وسادة الصُلح)، فالظُلم لا يرضى به أحد إطلاقاً، ولكن ليس على حساب الأبرياء، و(بقية السيف وسادة الصُلح) وردوا كافة الموارد في

---

(١) هذا موضوع، ويغني عنه حديث المقدام بن معد يكرب قال: «قال رسول اللهﷺ: حسنٌ مني، والحسين من علي» أخرجه أحمد في المسند (١/ ١٠١) من حديث علي بن أبي طالب، وحديث المقدام أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (٢/ ١٢٩/ ١٣٠).

(٢) من لا يحضره الخطيب ٤/ ٢٥٦ تأليف: داخل السيد حسن.

سبيل الحق وإقامة شروطه، ولكن من واقع ثقافي وأدبي أبوي، فرأوا أنَّ السلامة خيرٌ من المغامرة، وكان الإمام الحسن إمام السلامة في سبيل حفظ الدماء وصون الأعراض إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً، وأيده المصطفىﷺ في هذا المنهج دون أن يشير إلى أن هذا السيد وصُلحَه سيكون مناورة سياسية يتم الفصل فيها بواسطة الإمام الحسين ليعيد للعالم والأمة فكرة الحروب والثأر والانتقام، وإنما كان موقف الإمام الحسين هو موقف الاجتهاد المشروع مع موقفه المحرج من الأتباع والأشياع من جهة لتحميلهم إياه بيعة في عنقه، ثم موقف الشجاع الذي اتخذ سبيل الاجتهاد ورأى رأياً وصمم عليه، فكوّن به مدرسة لأهله وذريته، كما تكون من ذلك أيضاً مدرسة حسرة وعقدة ذنب لدى خاذليه والمتأخرين عن نصرته، وهم اليوم يملؤون الأرض صراخاً وعويلاً تحت ما يسمى بعقدة الذنب.

إن آل البيت لو كان هناك أمل لهم في محبين يضعون المجد والعزة والشرف لكان لا يتعدى الحسن والحسين، أو أن يعود أحدهم إلى الحياة ليصبح إماماً للأمة، وأما وقد ذهب الإمامان فنحن أمام دعوتين داخل القبو الأبوي لآل البيت:

- دعوة الثورة ومبرراتها وفلسفتها على حساب الامتلاك للسلطان وإسالة دماء الأمة من محق ومبطل، ولن يكون لآل البيت فيها غير الاسم والدعاية والشعار.
- والدعوة الثانية دعوة السلام التي رسمها الإمام الحسن وحولت جيل آل البيت ومن في دائرتهم إلى البناء الأبوي الشرعي في الحياة مقتدين بالعشرات من أهل الحق وقد صبروا على مراحل البطش والأذى، وكان هدفهم الإنسان وليس السلطان، واستطاعوا بهذا الهدف أن يعيدوا إلى حضرة الولاء الآلاف من المعارضين والمناوئين، بل ومن أعداء آل البيت من عاد بالحكمة والموعظة الحسنة، وتظافرت جهودهم جميعاً على الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة حتى يموت الجميع على حُسن الخاتمة، وسيكون الفصل العدل يوم القيامة، وكفى.

إننا لا نُلزِم أحداً بثقافة (بقية السيف وسادة الصُلح)، ولا ندعو إليها مَنْ يأباها، بل نعرضها في سوق العرض والطلب كنموذج واع لفرض الاستقرار النسبي والاستقرار الذي يجمع ولا يفرق ويبني ولا يهدم.

وأما غيرها من الدعوات والثقافات والتهوكات مهما عَظُم أمرها وحَمَلَت شِعار الكتاب والسُنّة أو شعار نصرة المظلومين من آل البيت فلن نبرّئها من أثر

النفس والهوى والدنيا والشيطان، ولن تَسْلَم في مسيرتها الثورية - كما تسميها - من حَمْل تبعات الهتك والفتك والقتل دون أن تجني مكسباً إسلامياً أمام عدوها العالمي الكافر، بل ربما مهّدت له الطريق كما مُهِّد لها لتكتسح الواقع المضطرب، ومن ثم يتسنى للكافر الإجهاز عليها كما أجهز على من كان قبلها ، وهكذا دواليك.

إننا هنا نضع جزئية مهمة حول هذا الموضوع الحساس لنقطع الطريق على المتربصين والمتقولين، حيث برز في الآونة الأخيرة على يد بعض الإخوة المجاهدين في سبيل الله نصرٌ مؤزرٌ في لبنان ضد العدو الصهيوني، وارتفعت به هامات المسلمين في بقاع العالم كله، وانكسر حاجز الوهم الذي فرضه العدو على الأمة تحت مفهوم (الجيش الذي لا ينهزم).

ومثل هذه الظاهرة الجهادية الناجحة تعتبر مكسباً إسلامياً للأمة كلها بصرف النظر عن المذهبية والاتجاه، فالمذهب مخرج تاريخي لا علاقة له بالنصر أو الهزيمة، وإنما القاسم المشترك كون الجهاد على يد العقل الإسلامي الواعي الملتزم لقاعدة حسن التدبير وسلامة التخطيط وتجنب عوامل الاختراق من عيون العدو، وهذا هو سبب النجاح.

كما أن انعدامه لدى المسلمين والدول العربية كان سبب الفشل أيضاً، ولا علاقة للمذهبية والصوفية بذلك.

وقد وقع بعض علماء المرحلة من منسوبي أهل السنة في خطأ فادح عندما اعتبروا النصر الجهادي في لبنان مرتبطاً بالمذهب، فأدانوا الجهاد والمجاهدين باعتبار مذهبهم الشيعي، وهذا حُكْمٌ فاسد من أساسه، لأن الذين أدانوا الجهاد في سبيل الله ينحون في فتاويهم ضيق الأفق المرحلي ولا يدركون القاسم المشترك بين المسلمين في الجهاد الإسلامي.

ودلالة هذا الضيق المرحلي عدم استيعابهم لمن هم من داخل مذهب أهل السُنَّة من الصوفية، حيث أخرجوهم عن مذهب أهل السُنَّة بشبهات التسييس والتدنيس، فكيف يتسع مجال الاستيعاب لديهم فيمن هم خارج المذهب كله؟ وهذا هو تعليل المشكلة من كل وجوهها.

إننا نقرر هذا الموقف هنا كمسألة جزئية ترتبط بحوادث المرحلة، ونسجل موقفنا المؤيد للمجاهدين في سبيل الله من أي مذهب كانوا، فالنصر لا يرتبط بجزئيات المذاهب والأفكار، وإنما يرتبط بحسن القيادة وسلامة التخطيط وكتمان الأسرار من اختراق الأعداء.

ونحن وهم في هذا النجاح على قاسم مشترك أمام العدو المشترك، وأما مسألة المذاهب فمحور الخلاف والاختلاف حول بعض النقاط المسيسة، والتي نأمل معالجتها لدى الجميع بكمال الوعي وصدق العلاقة بالرسالة وثوابتها.

إننا هنا نضع التحليل الواعي لقضية أثر الكافر بمسؤولية وإدراك، فالذين لا يولون لأثر الكافر في المرحلة موقعاً هم أولئك الذين يستثمرون الولاء معه ضد الولاء للإسلام في شعوبه الممزقة، فالقرار العالمي في الحرب والسِلْم هو بيد عصبة الكفر الإبليسي بعد سقوط قرار الخلافة، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يرتفع صوت إسلامي في مرحلة الغثاء سواء على الكافر ذاته أو على المسلمين فيما بينهم إلا وهناك بصمات للقرار الكافر يحقق بها مصالحه، إما بالرضا على عنجهية مسلم على مسلم مثله ضمن دوائر الأنظمة المهزوزة أو ضمن الجماعات والأحزاب والتيارات المتناقضة ذات العلاقة المباشرة بالسياسة العالمية (فرِّق تَسُد)، أو بصراعٍ مسيّس وتحريش مبرمج يضرب بين حَمَلَة قرار الأنظمة أو حَمَلَة مناهج المذهبية وآل البيت، بحيث يتحقق للكافر وسياسته الربح الأوفر من الصراع.

لقد كانت مدرسة الأبوَّة مِنْ (بقية السيف وسادة الصُلح) حلاً جذرياً للمشكلة من أساسها، وهذه وجهة نظرنا، وإن كانت في نظر المندفعين والمتنفعين

وجهة نظر جبانة، لكنها - كما نجزم بذلك - ورقة عمل مجدية في الواقع الإسلامي المضطرب، خصوصاً بُعيد سقوط قرار الأمة الإسلامية ووقوعها في براثن الكفر والكافر.

إن هذه المسألة تنطلق من مبدأ إنقاذ ما يمكن إنقاذه في طوفان الصراع الباتر، والصراع الباتر لا يحقق للشعوب سلاماً أو حياة، وإنما يحقق للشيطان ووكلاؤه استثماراً وسيطرة واستبداداً على الشعوب.

فيا ترى هل لدى آل البيت في مرحلة العولمة حل عالمي يلوحون به أمام العالم؟ أم هو انتقام وإعادة لمفهوم المقولة الماركسية «أخربوها فليس لديكم ما تفقدونه»!

فإن كان هناك حلٌّ جذري للعالم بدءاً بالقرار السياسي والاستقرار الاجتماعي المتحرر عن الاستعمار والاستثمار، فتلك مسألة مهمة في تاريخنا المعاصر يجب أن نرى إشاراتها في ذات البؤر التي تلوح بهذا الحل العالمي الجديد، وإن كان مجرد همهمات وتخرصات - كما هي في عالمنا السُنّي المعاصر (فئات وأحزاب وجماعات وجمعيات صراع وصوفية وسلفية وما تفرَّع عنها من بؤر منتنة ومحزنة)- فالحقيقة تقتضي إعادة النظر في الأمر كله من جهة، كما تقتضي منا نحن (بقية السيف وسادة الصُلح وَمَنْ تَبِعَنا بإحسان) أن لا ننجرَّ خَلْف

الأحابيل والأضاليل والتخرصات والتمويهات، فقد كفانا ما رأينا وما حلَّ بنا وبغيرنا، ولنا سَلَفٌ صالح رضي الله عنهم وأرضاهم ما تركونا لرياح التغيير عرضة ولا خذلونا في المواقف التي اتخذوها لحفظ الدين والعرض والهوية، فجزاهم الله عنا خير الجزاء.

وإنما مشكلتنا المعاصرة هي تكالُب الغير على هذه البقية لإدراجها ضمن كُتَل الصراع، واللعب بالنار من خلال امتطاء قضية الولاء والمحبة وقضية احتكار العمل بمذهب معيّن دون غيره، وكأنها لا تصح صلاة ولا قربة إلى الله بمذهب إسلامي آخر؛ وإن تظاهر الأتقياء على العمل به.

إن (بقية السيف وسادة الصُلح الواعي وَمَنْ تَبِعَهُم بإحسان) - وقد عاصروا نماذج التحولات في أرض الرافدين - يرون أنَّ المواقف التي اختارها عقلاء مدرسة الأبوة للخروج من دوامة الصراع بالكلية هي خير ما يميزهم في طريقهم الثابت إلى الله.

كما أنَّ تفسيرهم - رضي الله عنهم - للأحداث من خلال الشرع لا من خلال تغليب الطبع قد حَفِظ قلوبهم وألسنتهم وأيديهم عن الخوض في الباطل، كما حفظ الصدور الأئمة أنفسهم بذلك، وربما عَجِزَ الكثير من فقهاء المبررات

عن معرفة أسلوبهم في حفظ أنفسهم بالشرع، لأن الشرع في أيدي الكثير من فقهاء المغالطات مادة نفي وإثبات لما رأوه واستحسنوه.

لقد قرأ فقهاء (بقية السيف) قضية صُلح الإمام الحسن قراءة شرعية كما قرأها بعض سادة الصُلح بما لم يقرأها كثير من آل البيت الحاملين سيوفهم للانتقام الوهمي:

أولها: أن موقفه كان بعد دراسة واعية منه لمواقف أتباعه وأشياعه الذين يحيطون به وبوالده ومَنَ سَبَقه من حَمَلَة القرار الشرعي، فلم يجد أملاً في تحقيق نَصْرٍ بهم.

ثانيها: أنه تأكد لديه غلبة التأثير المادي على أهل الشام آنذاك، وانعكاس قضية التنازل في التحكيم – إبان معركة صفين – على المواقف من أساسها، وهي علّة إضافية تُدين جناح المحبين الذين ألزموا الإمام قبول التحكيم مما أضعف موقف الشرعية.

ثالثاً: أنَّ موقف الإمام الحسن كان مدعوماً بالنص النبوي في الفصل بين الفريقين المختصمين، ولا يوجد نص آخر يؤكد سلامة المخالفين لهذا الموقف بنقضه أو إدانته.

رابعاً: أن الإمام الحسن حَمَلَ كافة أهل البيت من العراق إلى المدينة كمظهر جديد لتحول المواقف لديه من أمر الخلافة والمحبين في العراق إلى الأبد.

خامساً: أن اجتهاد الإمام الحسين، وخروجه الشرعي، وما ترتب على ذلك من استشهاده ومَنْ مَعَهُ يؤكد سلامة منهج الصلح ويدين الظُلم والظالمين من طرفي الخاذلين والقاتلين.

إذن – والأمر كما ذكرنا – فالإعادة لهذه القضية في مؤلفات المرحلة إنما تشير إلى رغبة فقهاء المراحل الذين وصفهم الإمام الحسن في وصيته لأخيه بـ (سفهاء الكوفة) أن يكون آل البيت وقوداً للثورة التي كلَّفت آل البيت سلامتهم وسلامة دياناتهم، وأخرجتهم من أرض المدينة ـ بعد أن آووا إليها ـ إلى أرض الشقاق والنفاق وما حولها من تلك البلاد المضطربة.

إنَّ فقه (بقية السيف وسادة الصُلح وَمَنْ تَبِعَهُم بإحسان) قد احتوى وبيَّن خَطَرَ المؤامرات التي دُبِّرَت للإسلام كله منذُ عَصْرِ المُلْكِ العَضوض حتى عصر العولمة، ولكنَّ هذا العلم يصاحبه وعي ودراسة لمواقف الأئمة المظلومين ولحال أمة محمد أجمعين، وما ترتب على هذه المواقف من ثوابت وقواعد لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تنقضها العواطف ولا التحولات السياسية ولا المصالح المتغيرة ولا الأمم المتداعية، ولكن يصاحبه هدوء وسكينة وحفظ للمواريث

والأخلاق وحُسن تصرف يحفظ ماء الوجه ونزاهة المأكل والمشرب والأسرة والمجتمع بالتي هي أحسن، وفي حال الطوفان وساعات الغرق كما هو حال عصرنا وما يدور فيه، فلا شيء لدى أهل (بقية السيف وسادة الصُلح الواعي) غير إنقاذ ما يمكن إنقاذه، و«عليك بخويصة نفسك»، لأن المتبوع الأعظم قد أوضح الطريق وأنذر الفريق، ولم يربط الديانة ومستقبلها بمقتل أحد ولا بإسقاط الحكم عن مثله، بل بَسَط الأمر وفق الالتزام بالأصلين، ومن اجتهد فأخطأ فلا جناح علينا ولا عليه في أمر يجمع عليه ويتفق لدى أهل الحل والعقد في إمضائه والسير في كنفه وثمراته، والجنوح قد عرفناه بالنص، وعلاج الاختلاف حول القرار يكمن في مواقف الأثبات العدول، ولا حاجة لنا ولا لغيرنا اليوم في كشف أوراق وفتح ملفات طواها الزمن إلى يوم المعاد.

وإنما الأوراق التي يجب أن تُكشَف والملفات التي يُلزَم أن تُفتَح هي ملفات عمالتنا المعاصرة - بوعي أو بغير وعي - للثلاثة الخُلفاء، هذه العمالة التي مَنَحَت العدو امتلاك القرار وفرض عوامل الاستقرار بعد أن حذرنا مولانا من ذلك، وأفرد له المصطفى ﷺ فقهاً خاصاً يُعْرَف في أركان الدين بعلامات الساعة(١).

---

(١) وبهما – أي بعد ما حصل لهما من حوادث – وما كانت من مواقف.

أين موقف السُنَّة المصنَّعة والشيعة المقنَّعة والأحزاب الدينية المسيَّسة والتجمعات الفئوية المترِّسة[1]، وحتى المذهبية والصوفية المتنافسة من علامات الساعة وفقهها، وما كشفهﷺ من انهيار وإحباط وغثاء ووهن؟

إن لنا نحن (بقية السيف) حقّاً في رسول الله، وفاطمة الزهراء، وعلياً بن أبي طالب، والحسن والحسين، وسادة الصُلح الواعي، وآل البيت أجمعين، وفي الكتاب والسُنَّة، والنبوَّة، والأخلاق المحمدية، ولكننا لا ننهج ما نهجه المُفْرِطون ولا المُفَرِّطون في معالجة القضايا وتحليل المواقف، وإنما ننهج منهج السادة القادة أنفسهم، وهم بالترتيب:

---

(١) المترِّسة: أي المحمية داخل المجتمعات المتناقضة.

ومفهوم السُنّة المصنّعة إشارة إلى ثمرات السياسة العالمية في العالم الإسلامي بعد سقوط قرار الخلافة الحامي لمنهج السُنّة الحقيقية، وكيف تم بعد ذلك إيجاد مفهوم (أهل السُنّة) بأسلوب مسيّس ـ أي: مُصنّع ـ تنفصل به (مدرسة التصوف) عن مفهوم أهل السُنّة ليصبح أهل السنة في واقع الحياة الغثائية حملة منهج (القبض والنقض في جزيرة العرب).

وأما مفهوم الشيعة المقنّعة فهو إشارة إلى التكتم والتقية التي تمارسها مدارس التشييع لاكتساح الواقع العربي والإسلامي بأساليب مقنّعة بصَرْفِ النظر عن محبتهم لآل البيت أو عدمها، فللمحبّة علامات، وللسياسة المقنّعة دلالات، والله غالب على أمره.

١- النبي الأكرمﷺ ومواقفه الأخلاقية المرتبطة بشريعته الغـراء، وهـي أساس بناء العلاقة بين الأفراد والأسر والمجتمعات والشعوب.

٢- الخلفاء الأربعة: ويأتي في مقدمتهم - من حيث الاهتداء والاقتـداء بسنن المواقف - إمام التحولات الخاصة بنا آل البيت (الإمـام عـلي رضي الله عنه) الذي كان وجوده في هذه المرحلة الحرجة ثباتاً وعوناً ونصراً للخلافة، وسنداً للرسالة التي قال عنها - إن صـح مـا قيـل عنه - وهو يخذف نعلاً كان بيده أمام أحـد الـصحابة ويـسأله عـن قيمة النعل، فقال: لا قيمة له، قال: إن الله ليعلم أنها أهم عندي من خلافتكم، إلا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً"[1].

و عن عمّار ابن ياسرؓ قال: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِﷺ يقولُ لعليّ ابن طالـب: يا عليّ: إن الله تعالى قد زينك بزينة لم تزين العباد بزينة أحـب إلى الله تعـالى منهـا، هي زينة الابرار عند الله الزهد في الدنيا فجعلك لا ترزأ من الدنيا شيئا ولا تـرزأ

(١) من لا يحضره الخطيب، الجزء الرابع (رقم الصفحة).

الدنيا منك شيئا ، ووهب لك حب المساكين فجعلك ترضى بهم أتباعا ويرضون بك إماما»[1].

٣- الإمام الحسن والإمام الحسين: وهذان الإمامان قد جمعا بين المعادلين في اختبار الأمة عموماً، وبهما انقطع الرجاء في عودة الأمور إلى مجاريها، بل ربما جرى من النصوص المصاحبة للمراحل التي عاصروها وما ترتب على ذلك من تحول وتغير في شأن القرار خصوصاً، فانصرف الجميع من أتباع (بقية السيف وسادة الصُلح وَمَنْ تَبِعَهُم بإحسان) عن مسألة الاشتغال بالقرار والمطالبة به إلى بناء عوامل الاستقرار المشروع في جسد الأمة المتداعي وحفظ ما يمكن حفظه من تماسك الشريعة والديانة، وقد فعلوا.

٤- الإمام علي زين العابدين، وهو حُجّة على الجميع بعد الحسنين رضي الله عنهما وأرضاهما، وهو أصل المقصود من مقولة الإمام علي رضي الله عنه: «بقية السيف أنمى عدداً وأكثر ولداً»[2] وهو كما قلنا

(١) أسد الغابة: ٤/ ١٠١، ترزأ : في حديث سراقة بن جعشم فلم يرزآني شيئا أي لم يأخذا مني شيئا.

(٢) سبق تخريجه.

حُجّتنا فيما ذَهَبَ إليهِ أسلافنا الصالحون بحضرموت وما ذَهَبَ إليهِ مَنْ قبلهم أقوام بمكة والمدينة المنورة والعراق، إذ لا سلف لنا نحن (بقية السيف) غيرهم في سابق العهد بعد مَنْ ذكرناهم من أصولنا الفكرية الأبوية.

فالإمام علي زين العابدين مهندس التاريخ اللاحق لمدرسة آل البيت، وأحد أصولها الفكرية ومواقفها الشرعية المعتبرة، بصرف النظر عمّن جاء من بعده راغباً في الثورة ضد الظالمين، فتلك وجهة نظر أخرى لها مقاييسها لدى فقهائها، ولا ننكرهم ولا نقصيهم من موقف الحركة، لكنهم ليسوا بديلاً ولا حُجَّة لنا ولا لغيرنا، بل إننا لو قبلنا من بعضهم الثورة على الظُلم والظالمين فلن نقبل من أتباعهم فلسفة المواقف التي ركنوا إليها في إفساد علاقة الأمة

وقد ورد في مصنف ابن أبي شيبة ص٢٧ إشارة إلى بقية السيف في قوله حذيفة: «قلت: يا رسول الله: أرأيت هذا الخير الذي كنا فيه، هل كان قبله شر؟ وهل كائن بعده شر؟ قال: نعم. قلت: فما العصمة؟ قال: السيف. قال: قلت: يا رسول الله: وهل بعد السيف من بقية؟ قال: نعم (هدنة). قال: يا رسول الله فما بعد الهدنة؟ قال: دعاة الضلالة، فإن رأيت خليفة فالزمه، وإن نهك ظهرك ضرباً وأخذ مالك، فإن لم يكن خليفة فالهرب حتى يأتيك الموت وأنت عاض على شجرة».

بالخلافة الراشدة، وإبطال سلامة انتقال القرار الإسلامي من عصر الرسالة إلى عصر الخلافة الراشدة، فهذا عين الاختلاف وأساس الخلاف.

ونحن في مدرسة حضرموت – وهي جزء من مدرسة المنسوبين لـ(بقية السيف) – نخالف المدارس الإسلامية الطاعنة في مرحلة الخلافة الراشدة، مع أنَّ بعض الأفراد من حَمَلَة الرأي الشخصي في (مدرسة حضرموت) وخاصة من يرغبون في التعبير عن عواطفهم الجياشة ضد مجريات المراحل التاريخية قد وقعوا في بعض الصحابة المنسوبين إلى مرحلة (الطلقاء) لكنهم لم يخدشوا الخلافة الراشدة ولم يتناولوا الخلفاء الأربعة كتناول أهل التفريط والإفراط.

وهذه كلها لا تتجاوز الآراء الشخصية لدى بعض الأفراد، وليست معبرة عن مدرسة حضرموت كلها، لأن مدرسة حضرموت لها ثوابتها المتوارثة وقواعدها المتأصلة على منهج السلامة كابراً عن كابر، وإماماً عن إمام إلى الفقيه المقدّم، ومنه إلى الإمام المهاجر، ومنه إلى الأئمة الأكابر إلى الإمام علي زين العابدين.

وقد ميَّز الإمام الحداد هذا التسلسل المنهجي في قصيدته العينية، وزاد الإيضاح والشرح بياناً الإمام العلامة السيد أحمد بن زين الحبشي في (شرح العينية)، فليراجع.

بقية السيف (علي زين العابدين)..

الشجاعة المثلى.. دعوة وعِلمٌ وعبادة..

عاش الإمام علي زين العابدين في مجتمعات تزخر بالحركات السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية المتنوعة بما فيها من ظلم سياسي وثراء اقتصادي وترف اجتماعي وسير إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة في التيار الشعبي الأبوي، ومع هذه المتناقضات في هذا الواقع كان القادة والرموز يشعرون بالفخر وقد تخلصوا من أضدادهم وهدأت المطالبة بالدماء والثأر إلى حد ما.

وفي هذه الحقبة كان الإمام علي زين العابدين يقرأ سطور الواقع والمستقبل بعيون الأبوّة وسرّ النبوة وعلائم الحزن بادية على الوجه الوضيء الوقور، وكلما سأله القوم عن حزنه البادي قال لهم: «كيف يذهب الحزن عن قلبي وقد رأيت بضعة وسبعين من أهل بيتي يُقْتَلون أمام عيني؟».

وأخذ الإمام العابد الزاهد الواعي يرسم في الواقع مدرسة (فقه بقية السيف) على وجهها الصحيح، إذ أشاح عن الظالمين وجهه، واستقبل الشعوب في مواقع العطاء والعلم والدعوة إلى الله، وبدلاً من أن يجندهم في الحروب والقتال جندهم لحفظ أمانة العلم والعمل وحُسن الامتثال لأمر الواحد القيُّوم.

قال في كتاب (مَنْ لا يحضره الخطيب ٤/ ٣١٨، تأليف: داخل السيد حسن): «كان الإمام زين العابدين يتصدى لنشر الوعي الاجتماعي وبث الثقافة الإسلامية الأصيلة وتفجير ينابيع الحكمة والعلوم والمعرفة لينير الأفكار ويهذب الأخلاق ويربي النفوس، فانتسب لمدرسته عمالقة الفكر وبناة الحضارة الإسلامية».

قال سعيد بن المسيب: «كان القُرّاء لا يخرجون إلى مكة إلا إذا خَرَجَ علي بن الحسين، فَخَرج وخرجنا معه ألف راكب».

ومصطلح (القُرّاء) في ذلك العصر يقابل كلمة (العلماء والمثقفين) في وقتنا الحاضر، ومعنى ذلك أن الطبقة المثقفة والشرائح المتعلِّمة كانت تلتف حول الإمام زين العابدين، فيستفيدون من دروسه ومحاضراته وتعاليمه.

ومن أشهر المنتسبين لمدرسة الإمام العلمية: الزهري، سفيان بن عيينة، نافع، الأوزاعي، مقاتل، الواقدي، أحمد بن حنبل، جابر بن عبد الله الأنصاري، سعيد بن المسيب، سعيد بن جبير، وغيرهم...

وكل هؤلاء أخذوا عن الإمام علي زين العابدين أو من أخذ عنه ونهجوا منهجه في السلامة والتوسط والاعتدال المشروع، وتشهد بذلك مذاهبهم الإسلامية التي نشروها في العالم الإسلامي.

قال الزهري فيه: «لم أر هاشمياً أفضل منه وما رأيت أحداً أفقه منه، كان أقصد أهل البيت وأحسنهم طاعة»، وقال حماد بن زيد: «كان أفضل هاشمي تركته بالمدينة»، وقال أبو بكر ابن أبي شيبة: «أصح الأسانيد كلها: الزهري عن علي بن الحسين عن أبيه عن علي بن أبي طالب»[1].

وقد أشبعت التراجم التناول لأخلاقه وحلمه وعلمه وطول عبادته وحسن استقامته وورعه وتواضعه وجلالة قدره واحترام المسلمين له.

وفي قصة الفرزدق وهشام بن عبد الملك إشارة واضحة إلى ما قد وصل إليه الإمام علي زين العابدين من شرف التقدير أمام الشرف المادي الذي خذل هشام ساعة الاختبار، فقد حُكي: «أنَّ هشام بن عبد الملك حَجَّ قبيل خلافته، فكان إذا أراد استلام الحجر زوحم عليه، وإذا دنا علي بن الحسين من الحجر تفرقوا عنه إجلالاً له، فوحم لها هشام وقال: مَنْ هذا؟ فما عرفه.

وكان الفرزدق حاضراً فثار غضباً لله ولرسوله وأنشد:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته   والبيت يعرفه والحل والحرمُ
هذا ابن خير عباد الله كلهم   هذا التقي النقي الطاهر العَلَمُ
إذا رأته قريش قال قائلها   إلى مكارم هذا ينتهي الكرمُ

(١) شرح العينية، ط١٨، دار العلوم الإسلامية، سورابايا.

يكـــاد يمـــسكه عرفـــان راحتـــه ركـن الحطـيم إذا مـا جـاء يـستلمُ
يغـضي حيـاءً ويُغـضَى مـن مهابتـه فـــما يكلـــم إلا حـــين يبتـــسمُ
هـذا ابـن فاطمـة إن كنـت جاهلـه بِجَـــدِّهِ أنبيـــاء الله قـــد خُتمـــوا»

وهي طويلة النَّظْم واسعة المعنى، وحُبِسَ الفرزدق بسببها، وأَرْسَل إليهِ علـيّ زين العابدين صِلَةً وعوناً فردّها وقال: «ما قلت ذلك إلا غـضباً لله ولرسـوله»، فردها عليٌّ إليه وقال: «بحقي عليك لما قبلتها فقد عَلِمَ الله نيتـك ورأى مكانـك» فَقَبِلَهَا[1] .

ورسَّخ الإمام علي زيـن العابـدين بمواقفـه مـن القـرار العـضوض وحملتـه مدرسة أبوية نبوية ذات أبعاد قال فيها الإمام الحداد:

«مثل الإمـام عـلي زيـن العابـدين القانــــت المتبتــــل المتخــــشع

قد جعل فراره إلى الله وخدمته للقطاع الأوسع مـن الأمـة شـغله الـشاغل، فكان للإسلام بهذا أنفع العوائد وأفضل المقاصد».

(١) أعلام آل البيت، ص١٥، عبد القادر محمد منصور.

مدرسة الإمام علي زين العابدين رضي الله عنه (مدرسة النمط الأوسط)

بمواقف الإمام علي زين العابدين بدأت مدرسة الزهد والتصوف وبه أيضاً خُتِمَت وحُسِمَت قضية الصراع والنزاع على القرار، فهو رضي الله عنه مِفْصَلٌ هامٌ في الفصل بين مرحلتين:

الأولى: مرحلة اجتماع الخلافة والنبوة، ووقوف الأئمة من آل البيت في صدر مواقع القرار، سواء في محيط القرار ذاته أو ضمن دائرته بالمشاركة والموافقة.

وقد بدأت هذه المرحلة من مبايعة الإمام علي رضي الله عنه لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وحتى تنازل الإمام الحسن بن علي رضي الله عنه ومقتل الإمام الحسين بن علي رضي الله عنه.

الثانية: مرحلة انقسام وانفصام الخلافة عن النبوة، وتبدأ بمقتل الإمام الحسين رضي الله عنه حتى اليوم، وإلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وقد ترتب على هاتين المرحلتين بروز موقفين هامين داخل مدرسة آل البيت:

الموقف الأول: مدرسة الزهد وعدم المطالبة بالحُكْم

وبدأت فاعليتها بمواقف الإمام الحسن وعلي زين العابدين ومن جاء من بعده من الأئمة على هذا المبدأ.

كالإمام محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب، والإمام محمد الباقر، والإمام جعفر الصادق، والإمام موسى الكاظم، والإمام علي الرضا بن موسى الكاظم، وأبي الحسن العسكري، والإمام علي العريضي.

وذكر أنه خرج أول الأمر مع أخيه محمد بن جعفر بمكة ثُمَّ رَجَعَ عَنْ ذلك.

والإمام محمد النقيب بن علي العريضي، والإمام عيسى بن محمد، والإمام المهاجر أحمد بن عيسى ومن تبعهم من أبنائهم وأحفادهم وأتباع منهجهم خلال مرحلتي الأموية والعباسية.. يجمعون قلوب الأمة داخل دائرة الدولتين على ثوابت الأخلاق المحمدية مع ثوابت العلم الشرعي وإشاعتها وحفظها، مساندين لأهل العلم، مجانبين ما استطاعوا أهل النفوذ والحُكْم إلا فيما تَجِبُ فيهِ المناصحة، وهم – أي: آل البيت – في هاتين المرحلتين بين مطارد أو مسجون أو مراقب أو مهاجر، أو بين صابر على البلوى وقائم بالحقوق غيرَ مطالب بحقِّهِ أو مَقامه، وكانت هاتان المرحلتان هي التي فَصَلَت بين قرار الحُكْم وبينَ قرارِ العِلْم، وكوَّنت أول مظاهر (النقض) و (القبض) في صورته الأولى.

وتكونت في هذا الخِضَمّ الصاخب ثوابت المذهبية، وكانت على أقسام:

مذهب أهلَ السُنّة والجماعة مِنْ حَمَلَة عِلْمِ الشّرع الإسلامي الآخذين بالسَنَد المتَّصل إلى النبيﷺ، الراضين بما رَضي به آل البيت، ومنهم مذهب الإمام زيد بن علي، ومذهب الإمام جعفر الصادق وَمَنْ أخذَ عنهم مِنَ العلماء المعتدلين الآخذين عن منهج الإمام علي زين العابدين، والإمام محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب، والإمام محمد الباقر، والإمام جعفر الصادق، ومن في دائرتهم من الأئمة والعلماء والأعلام، وتمخض عنهم ظهور أسس المذاهب الإسلامية الستة حسب الترتيب المرحلي: الزيدية، الإمامية الجعفرية، الحنفية، المالكية، الشافعية، الحنبلية.

الموقف الثاني: مدرسة الخروج المسيّس عن المُلك العضوض والمطالبة بالقرار

وكان بروزها في أشد مراحل الاضطراب والصراع الدموي، ولم يتهيأ لرجالها البقاء والاستقرار، حيث إن غالب حَمَلَة المنهَجَين كانوا من المشتغلين بالصراع الفكري أو الصراع العسكري مع حُكام المُلك العضوض.

فالمدرسة الإمامية بُعيد وفاة الإمام جعفر الصادق تحولت إلى مدرسة جامعة لأشتات المعارضة السياسية والفكرية للمُلك العضوض إلا مَنْ رَحِمَ الله، وانطوى تحت اسمها كافة أهل المواقف المتنوعة من سبئية تسلسلت مواقفها من

عهـد عـثمان رضي الله عنـه ، وغُـلاة كـان لهـم دور خطـير في ترسـيخ الإفـراط والتفريط في المذهب الإمامي السياسي ضد المنهج الأموي والعبـاسي الـسياسي، وأخذت مبدأ الفعل ورَدّ الفعل.

ومع هذا وذاك ففي المذهب الإمامي ومدرستهم المتـشعبة مـن ينحـى نهـج التوسط والاعتدال، ولكن الصوت الغالب والحركة الفاعلة في الواقـع الـشعبي والسياسي هي لطرف الإفراط والتفريط كما هـو في مظهـر أهـل الـسُنَّة المسيّـسة اليوم.

والمدرسة الزيدية اشتغلت أيضاً بالمعارك العـسكرية، وتَخَـاذَل أتباعهـا عـن الإمام زيد حتى قُتِل، وتفرّع عنها مَنْ سماهم الإمام زيد بالرافضة، وهـم الـذين انطووا فيما بعد في المدرسة الإمامية، واضطرب فيها الأمـر حتـى ظهورهـا مـرة أخرى في أعالي اليمن، ومن ثم برزت في الواقع العربي والإسلامي مدرسـة ذات أبعاد سياسية ومذهبية زيدية مستقلة تعتمد في أصولها مسند الإمام زيد رضي الله عنه وتدعو إلى الثورة ضد الظَّلَمة وحَمَلة المُلك العضوض آنذاك، حتـى تكونـت لها دولة زيدية خاصة استمرت بين الظهور والخفوت على مدى قرون كثيرة ولهـا فقهها الخاص في النهج السياسي وقواسمها المشتركة مع أهل الـسُنَّة والجماعـة في فقهها المذهبي، كما أن لها تفرّدات مذهبية خاصة، وقـد انتهـت هـذه المدرسـة في

صورتها السياسية مع قيام ثورة اليمن في سبتمبر ١٩٦٢م وبقيت في صورتها المذهبية المحدودة.

مذاهب إسلامية أخرى

ومنها مذهب الخوارج الذي آل إلى ما عُرِف بالمذهب الإباضي، وكان في بداياته مذهباً ناقماً على مواقف حُكّام المُلك العَضوض من جهة، وناقماً على منهج آل البيت من جهة أخرى، متخذاً شعار: (لا حُكْمَ إلا لله)، وملتزماً القتل والتكفير والقتال والثورة ضد كل شيء ينتسب للإسلام المذهبي، وقد جاء كردّة فعلٍ سياسية ضد التحكيم من جهة، وضد الملك العضوض من جهة أخرى، وكان انتشاره بالسلاح والقتال، ولكنه في مراحله اللاحقة وخاصة بعد تكون دولته المعاصرة في نواحي عُمان اتخذ بعض علمائه مواقف أكثر انفتاحاً وملائمة مع الواقع الجديد، وزال عنهم كثير من التعصب الموروث ضد المسلمين.

ثم مذهب المعتزلة، وهو أحد مذاهب التَّرف الفكري الفلسفي الذي ظَهَرَ في المرحلة العباسية، واشتغل رجاله بالمسائل الفكرية المعقّدة كقولهم في مسألة (خَلْق القرآن)، واستمر من عهد المأمون العباسي حتى عهد المتوكل في صورته الرسمية، ثم خَفَتَ لينحصر في أتباعه المرتبطين به في الواقع الشعبي.

وكم عانى المجتمع الإسلامي من صراع هذه الثورات الفكرية ونزاعها العسكري ولم يستقر بها للأمة قرار ولا استقرار، حتى ذهبوا جميعاً إلى عالم ربهم جيلاً بعد جيل وأمة بعد أمة، وبقيت أنفاس هذه الرؤى والمذاهب متوارثة في الأبناء والأحفاد وبؤر صراعها التاريخي، وصنَّف العلماء الكتب الكثيرة لحصرها وتفصيل دعواتها ككتاب (المِلَل والنِحَل)، و (الفَرْق بين الفِرَق) وغيرها، مع أنَّ بعض هذه التحليلات والتعليلات للأسف قد أفرطت ونَحَت جوراً في الحديث عن بعض الفِرَق الإسلامية وعبّرت عنهم بما ليس فيهم.

ونحن هنا في كتابنا هذا نقرر المواقف الإيجابية التي نحا إليها أتباع منهج الإمام علي زين العابدين (بقية السيف وأتباع سادة صُلح الإمام الحسن) ونقرر من خلاله منهج السلامة المتسلسل بسنده إلى رسول الله ﷺ وكافة رجاله وأئمته الذين اختاروا لأنفسهم وأتباعهم حمل قرار العلم والنبوة جيلاً بعد جيل، ونزعوا بأنفسهم عدم الخوض في الجدل الفكري أو الصراع السياسي تاركين هذا الجانب للمدارس الأخرى ذات العلاقة بالقرار والمطالبة به.

ولخطورة هذا الشأن في مدارس آل البيت وخاصة في مراحلنا المعاصرة واعتقاد الكثير من الناس أن لآل البيت مدرسة واحدة وموقف واحد لا غير، وهو ما يُعرَف على المستوى الإعلامي بـ(الشيعة) و(الإمامية)، وأنه المذهب

الإسلامي الوحيد الذي تبناه أئمة آل البيت الأطهار، وأما غيره فلا – كما يقولون.

ومثل هذا الاتجاه والمنحى يحتاج إلى تمحيص وتعمق في قراءة تاريخ المذهبية الإسلامية وتطورها الزمني، ولذا فقد وضعنا في كتابنا هذا حقيقة الأمر المبيّن للجميع واقع التحولات ومجريات التكون للمدارس الإسلامية بعمومها ولمدارس آل البيت بخصوصها حسب فهمنا وفهم من تلقينا عنهم من أشياخنا لئلا تصبح المغالبات الإعلامية بديلاً عن الحقائق الإسلامية، غير مُفْرِطين ولا مُفَرِّطين، ولا منحازين إلى ذي سلطان ولا ذي شنآن، مفنّدين كافة الأُطُر التي بَرَزَ فيها المحبّون بطرفي الإفراط والتفريط، والمبغضون بطرفي الإفراط والتفريط، والمعتدلون القلَّة الذين ينازعهم الجميع ويغالبونهم في سبيل إخراجهم عن دائرة التوسط الشرعي ورَبْطَهم بأحد الطرفين المتنازعين عبر التاريخ السياسي والمذهبي.

منهج النمط الأوسط

تجتمع كافة المذاهب الإسلامية المنتمية إلى مفهوم النمط الأوسط في منطلقها السياسي تحت سَنَدٍ علمي وشرعي واحد، منبثق من مشكاة واحدة، وهي مشكاة النبي محمدﷺ - واضع أُسُس المدرسة النبوية الأبوية المُصانة بالعصمة والوحي - وتتفرع في القواعد والثوابت إلى فروع:

١- مدرسة الخلافة الراشدة الجامعة لأصحاب رسول الله وآل بيته والأنصار والمهاجرين - الذي حصنتهم النصوص وجمعتهم سلطة القرار الشرعي الواحد - ومَنْ تَبِعَهُم بإحسان مِنْ غيرِ إفراط ولا تفريط.

٢- بقية السيف وسادة الصُلح الواعي الحامل لواء السلامة من خلال الاهتمام بقرار العلم والنبوة بُعَيد صُلْح الإمام الحسن رضي الله عنه.

٣- بقية السيف وسادة الصُلح الواعي حاملي شعار المطالبة والخروج من خلال استعادة الربط بين قراري الحُكم والعِلم ملتزمين الحق في الاجتهاد المشروع.

ويخرج عن هذا التعريف كافة المنتمين إلى طرفي الإفراط والتفريط من كلا الطرفين (طرف السلامة وطرف المطالبة) السابق ذكرهما، فالأئمة الأعلام من ساداتنا آل البيت كلهم يدخلون في تعريف (النمط الأوسط) وهو التعريف الذي ينفي (الغالي المُفْرِط، والجافي المُفَرِّط).

وما جرى للخارجين منهم على القرار كما أشرنا إنما كان خروجاً على الظُلْم في موقع القرار وليس إفراطاً ولا تفريطاً، بل اجتهاداً مشروعاً تَكَوَّن لديهم بالأدلة التي رجحت بعلمهم وتجربتهم وتناسبت مع مرحلتهم رضي الله عنهم وأرضاهم، وانتهى هذا الاجتهاد بشهادتهم وموتهم رحمهم الله، ولا يسوغ لمن قام من بعدهم أخذ الثأر إلا أن يكون باجتهاد آخر وبوصية معتمدة.

وأما ما اتخذه التابعون والمحبون بعدهم من مواقف ومنازعة وصراع وثأر وما تولَّدَ عنهُ مِنْ فقهٍ مخالفٍ للنهج المتواتر لدى أهل النمط الأوسط فيُحال إلى طرفي الإفراط والتفريط، سواء قَبِلَ هذا التعليل مَنْ يعنيه الأمر أم لم يَقْبَل، فالقاعدة الشرعية هي التي تحكم الجميع، وليس التحولات ولا مواقف الأتباع، حيث وَرَدَ في الأَثَر: «خَيرُ الناس هذا النَّمَطُ الأَوْسَطُ.. يَلْحَقُ بِهِمُ التالي ويَرْجِعُ إليهمُ الغالي»[1].

---

(١) وفي رواية: «...العالي»، سبق تخريجه.

والنمط الأوسط هو **مواقف الأئمة الكرام ومن سار في دربهم وتأدب بأدبهم وانطوت محبته على الالتزام بِهَدْيهم**، وبهذا التعليل تتحدد المجموعات الواعية لمفهوم (النمط الأوسط) داخل خِضَمّ التحوّلات والصراعات عبر الأزمنة كمنهج شرعي واحد لا ثاني له يدخل في دائرته كافة الأمة المسلمة الملتزمة بمنهج النمط الأوسط، والتي لا علاقة لها بسياسة المُلْك العَضُوض ولا بالغلو والإفراط الناتج عن مواجهة سياساته ممن ساروا على قاعدة (لكل فعل ردّة فعل).

فالنمط الأوسط لا ينطلقون من هذه القاعدة ولا يعالجون الأمور من خلالها لأنها تختلف عن درجات السمو في التقرير القرآني لهذه المسألة، فالحق سبحانه يقول: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾، وهذا ما نسميه بقانون الفعل ورد الفعل، وأما قانون النمط الأوسط فهو ما حملته ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشورى: ٤٠].

والعفو لا يكون إلا بعد القدرة على رَدِّ الصاع صاعين ولو من بعض الوجوه، وبعد العفو تكون المشاركة في الإصلاح والبناء والتنمية بما يتناسب مع شرف المنهج وعدالة المطلب، وفي شأنه يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ

حَمِيمٌ ﴾ [فُصِّلَت:٣٤] ، فالعداوة الناشئة عن الاختلاف مسألة طَبْعية وهي سبب الفعل ورد الفعل، وأما قوله: ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ فهذه المواقف الأخلاقية الشرعية ضد طموح وجموح الطبع والرغبة، والذين التزموها حقاً في المدارس الإسلامية المتعددة هم (أهل النمط الأوسط) الذين ينطبق عليهم قوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فُصِّلَت:٣٥].

والنص الشرعي «خَيرُ الناس هذا النَّمَطُ الأَوْسَطُ»[١] دليل كاف للربط بين المعاني الراقية وحملتها الأوفياء، أما ما يليق بغيرهم من طرفي الإفراط والتفريط فهو شذوذٌ خَرَج عن القاعدة الأصلية وتبناه الشيطان ليكون وقوداً للتحريش والإثارة والاختراق، وقد اختُرِق به الواقع الإسلامي قراراً وعلماً وحياة وتحقق به القلق والفوضى والحروب والفتن ومُهّدت به العقول والقلوب ومنهجة التمرحل لقبول فتنة المسيخ الدجال الأعور طوعاً أو كرهاً.

---

(١) حديث: «خَيرُ الناس هذا النَّمَطُ الأَوْسَطُ.. يَلْحَقُ بِهِمُ التالي ويَرْجِعُ إليهمُ الغالي» وفي رواية: «...العالي»، سبق تخريجه.

مقولات أئمة النمط الأوسط أمام الأحداث والتحولات

عن عليٍّ رضي الله عنه أنه قال لأصحابه: «أوصيكم في أصحاب رسول اللهﷺ، لا تسبُّوهم فإنهم أصحاب نبيكم وهم أصحابه الذين لم يبتدعوا في الدين شيئاً، ولم يوقّروا صاحب بدعة، نعم أوصاني رسول اللهﷺ في هؤلاء» رواه المجلسي عن الطوسي رواية موثقة عن الإمام علي بن أبي طالب[1].

وكتب الإمام عليٌّ رضي الله عنه إلى معاوية في مسألة تعيين الإمام ومن الذي يعينه فقال:«إنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك لله رضىً، فإذا خرج خارج بطعن أو بدعة ردّوه إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى»[2].

ويقول الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر: «وكان أصحاب رسول اللهﷺ اثني عشر ألفاً ثمانية آلاف من المدينة وألفان من مكة، وألفان من الطلقاء، ولم يُر فيهم قدري ولا مرجئ ولا حروري ولا معتزلي ولا صاحب

(١) (حياة القلوب) للمجلسي (٢: ٦٢١).

(٢) نهج البلاغة: ٣/ ٣٦٧.

رأي، كانوا يبكون الليل والنهار، ويقولون: اقبض أرواحنا من قبل أن نأكل خبز الخمير»[1].

ولما جاء أبو سفيان إلى الإمام علي رضي الله عنه قال له: «وليتم على هذا الأمر أرذل بيت قريش، أما والله لئن شئت لأملأنها على أبي فصيل خيلاً ورجلاً، فقال الإمام علي رضي الله عنه: طالما غششت الإسلام وأهله فما ضررتم شيئاً لا حاجة لنا إلى خيلك ورجلك لولا أنا رأينا أبا بكر لها أهلاً لما تركناه»[2].

ولما طُعِن رضي الله عنه وأرضاه قيل له: «مَنْ سيكون الإمام والخليفة بعدك؟ فقال: ما أوصى رسول الله ﷺ، فأوصي، ولكن قال: إن أراد الله خيراً فيجمعهم على خيرهم بعد نبيهم»[3].

وعن جعفر بن محمد عن أبيه أن رجلاً من قريش جاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: «سمعتك تقول في الخطبة آنفاً: اللهم أصلحنا بما أصلحت به الخلفاء الراشدين، فمن هما؟ قال: حبيباي أبو بكر وعمر إماما الهدى وشيخا

(١) الخصال للقمي (٢/ ٦٣٩)، بحار الأنوار (٢٢/ ٣٠٥).

(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد ١/ ١٣٠ .

(٣) تلخيص الشافي للطوسي (٢: ٣٧٢).

الإسلام ورجلا قريش والمقتدى بهما بعد رسول الله ﷺ من اقتدى بهما عُصِم ومن اتَّبَع آثارهما هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيم»[1].

وروى الطبرسي في الاحتجاج (٧٣) أن علياً رضي الله عنه قال في خطبته: «خير هذه الأمة بعد نبيها: أبو بكر وعمر»[2]، وهذا الإمام الحسن بن علي رضي الله عنه يجعل أحد شروط الصُلح على معاوية بن أبي سفيان «أن يعمل ويحكم في الناس بكتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ وسيرة الخلفاء الراشدين» وفي نسخة أخرى «...الخلفاء الصالحين» فقد روي عنه أنه جاء إليه نفر من العراق فقالوا في أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم فلما فرغوا من كلامهم قال لهم: «ألا تخبروني: أأنتم المهاجرون الأولون ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ [الحشر:٨]؟ قالوا: لا.

قال: أفأنتم الذين ﴿تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩] ؟ قالوا: لا.

(١) تلخيص الشافي ٢/ ٤٢٨.

(٢) المصدر السابق.

قال: أما أنتم قد تبرأتم من أحد هذين الفريقين وأنا أشهد أنكم لستم من الذين قال الله فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠] !! اخرجوا عني.. فعل الله بكم وفعل»[١].

وسأل رجل الإمام الصادق عليه السلام فقال: يا ابن رسول الله: ما تقول في حق أبي بكرٍ وعمر؟ فقال عليه السلام: «إمامان عادلان قاسطان كانا على الحق وماتا عليه، فعليهما رحمة الله يوم القيامة»[٢].

وجاء أناس من رؤساء الكوفة وأشرافها إلى الإمام زيد بن علي بن الحسين رضي الله عنهما وهم ممن بايعوه فحضروا يوماً عنده وقالوا له «رحمك الله: ماذا تقول في حق أبي بكر وعمر؟ قال: ما أقول فيهما إلا خيراً، كما لم أسمع فيهما من أهل بيتي (بيت النبوة) إلا خيراً، ما ظلمانا ولا أحداً غيرنا، وعملا بكتاب الله وسُنَّة رسوله» فلما سمع منه أهل الكوفة منه هذه المقالة رفضوه، ومالوا إلى الإمام الباقر، فقال زيد: «رفضونا اليوم» ولذلك سُموا بالرافضة.

---

(١) كشف الغمة (٢: ٢٩١) تحت عنوان (فضائل الإمام علي زين العابدين).

(٢) إحقاق الحق للشوشتري ١/ ١٦.

وفي خلافة الإمام علي ومبايعته قال الإمام علي مشيراً إلى صحة بيعة من سبقه من الخلفاء: «إنكم بايعتموني على ما بويع عليه من كان قبلي، وإنما الخيار للناس قبل أن يبايعوا، فإذا بايعوا فلا خيار لهم»[1].

إذن فهناك فرقٌ بين مقولات الأئمة من آل البيت سادة النمط الأوسط وتابعيهم بإحسان ، الذين شملتهم الآيات الكريمة والثناءات النبوية الحكيمة وبين مقولات من جاء من بعدهم، وقد قال الله فيهم: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:١٨]، وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران:١٩٥].

وتوثيق القرآن لهم وشهادته بإيمانهم دلالة لا نقض فيها .. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال:٧٤]، ولم يدع الحق سبحانه وتعالى توثيقه

(١) ناسخ التواريخ (٣: ٢).

حتى من أولئك الذين دخلوا الإسلام بعد الفتح فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد:١٠]، والحق ما قاله المولى سبحانه وتعالى عن أوليائه المؤمنين وهم الذين وصفهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:١٠].

إذن فمن أين جاءت مقولة الإفك: هَلَكَ الناس بعد وفاة رسول الله إلا ثلاثة: أبو ذر، والمقداد، وسلمان؟ أو مقولة: كل الناس أهل ردة بعد النبي إلا ثلاثة: المقداد بن الأسود، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي؟

وإن كان البعض من حملة منهج الشيعة ينكرها فإنها تدب في الواقع دبيب النار، وتمهّد الطريق ومعها غيرها من المقولات الهاتكة الفاتكة ليل نهار في صفوف المسلمين، فلا الإنكار أوقف مدها ولا الإقرار بها أسهم في تصحيح الفهم الديني بين المسلمين.

والنبيﷺ يقول في عموم الأمة من بعده: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[1] ومن أفضلهم الصحابة وآل البيت الذين نفاهم حديث الإفك ولم يذكر منهم أحداً إلا ثلاثة من عامة الصحابة[2] كما سبق ذكره، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/ ٣٢٤ فتح) ومسلم في صحيحه (٢/ ٤١٢) والترمذي في السنن (٥/ ٣٥٧) وابن ماجه في السنن (٢/ ٧٩٠) وأحمد في المسند (١/ ٣٧٨) وابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٥٤٨) والطحاوي في مشكل الآثار (٣/ ١٧٦) في شرح معاني الآثار (٤/ ١٥١-١٥٢) والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٤٥) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٧٨) والخطيب في التاريخ (١٢/ ٥٢، ٥٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه بلفظ: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم».

(٢) وهم حسان بن ثابت، ومسطح، وحمنة بنت جحش.

لابد من كشف الأوراق لضرورة السلامة

إن تتبعنا لرجال النمط الأوسط من (بقية السيف وسادة الصُلح) ومن غيرهم من آل البيت ومن تبعهم بإحسان ومما تأكد لنا ولغيرنا بعد التحليل والتعليل من سلامة مواقفهم أمام مجريات التحول وسلامة ألسنتهم من الخوض في الخلافة الراشدة ومساندتهم لبعضهم البعض في كافة المراحل وَجَب علينا أن نضع المقابلة الهامة لمعرفة ما جرى من خيانة وتسييس في التاريخ أوقعت الأمة في صراع مفتعل لا علاقة للإسلام به من كافة الوجوه، فهناك شيعة أبرار، وهناك شيعة ثوار، كما أن في عالم أهل السُنَّة ما يشبه ذلك: أهل السُنَّة الأساسية، وأهل السُنَّة السياسية.

وهذان الطرفان في أهل السُنَّة وفي أهل التشيع هما طرفا الإفراط والتفريط وهما يعملان بعلمٍ وبغير علمٍ لدمار منهج التوسط والاعتدال في الأمة منذ الزمن القديم، وهما - أي هذان الطرفان - موقع الحركة للشيطان وأعوانه لإفساد واقع السلامة بين الشعوب والجماعات والدول والمنظمات والكتل والأحزاب والفئات، وهما أيضاً موقع الاصطدام المستقبلي المُعَد سلفاً لإنجاح الفشل المرتقب في الواقع الغثائي للأمة، وهما الصوت المدمر لسلامة شعوب الوحي القرآني في كل زمان.

ويتبنى هذا الموقف المتطرف ثلاثة أنماط من الأمة المنهوكة: سياسي متآمر، أو عالِمٌ متعصب، أو منتمٍ مستغفَل، وبهؤلاء الثلاثة تنجح الخروقات والاختراقات، وتتجرع الأديان والشعوب غُصَص التحريف والانحراف والانهيارات.

وأساس الفتنة في هذه الأطراف الثلاثة امتلاك القرار أو المشاركة فيه سياسياً أو علمياً أو شعبياً، وبين هذه الثلاثة المسميات عند امتلاك إحداها أثرٌ مهلك وخطر فتاك، فكيف إذا امتلك المفتون المواقع الثلاثة كلها؟

وقد لاحظنا في مسيرة التحولات القائمة على الصراع والفتن حشداً من المسميات المتنوعة الحاملة لواء الديانة لتتحقق بها عين الخيانة، فهناك شعارات ومفاهيم وحجب حقائق وعماية وتمويه، وفوق هذا كله قضاء وقدر وتسيير للأمور لا يعلمه إلا الله.

والقضاء والقدر لا يمنع راغباً في الحق أن ينصره ولا يقيد منطلقاً إلى فعل خير يود أن ينشره، وإنما يُلْزِم المنطلِق في طريق السلامة أن يعلم حقيقة أنه في هذا الاتجاه الشائك غير مسلَّم له من غيره، وربما تمكن غيره من رسم السلامة بأسلوب غير أسلوبه، فالمؤمن مبتَلى ومُمتَحَن، وفي سلوك السلف الأول والأخير قدوةٌ وأسوة.

فلم تَسْلَم المرحلة الإسلامية الأولى على عهد صاحب الرسالة من الأذى والشتم والتهكم والمضايقة سواء في المرحلة المكية أو المدنية، وربما كان في مرحلة المدنية زيادة بلاء وابتلاء ولكنها مراحل تمكين وتمتين، خاصة أنها جمعت بين كل وسائل المعالجة، كما جمعت بين كل المتناقضات: الكفار، المنافقون، اليهود والنصارى، أهل الأوثان من العرب، المرجفون، الذين في قلوبهم مرض، وغيرهم ممن لا يعلمهم إلا الله، قال ﷻ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡ﴾ [الأنفال:٦٠].

وكل هذه النماذج المتناقضة كانت في مواقف منازعة بينة ضد الحق الواضح حيث كان الجميع ممن ينتمون لهذه المجموعات يعملون لهدف متشابه ألا وهو تطويق الحق وإضعافه، بل واتهامه بالكذب والبهتان والتعدي على ما يروه حقا من وجهة نظرهم ولم يتورع أحد من هذه المجموعات أن يوظف كافة الأحداث الجارية لمصلحة موقفه ضد موقف رسول الله ﷺ حتى إن بعض المسلمين وقع في المحذور مع كثرة التأثير بمجريات الدعايات والسعايات والإرجاف ﴿وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡ﴾ [التوبة:٤٧] كما هو في قصة الإفك وتحولها مع الزمن إلى مدرسة تتبنى التهمة وتحيك حولها المؤامرة حتى بعد نزول البراءة، وتحقن بها العقل المتناقض

عبر المراحل لتكون واحدة من نقائض الدعوة إلى الله وهدم مفهوم البناء الإسلامي الأول، وإحدى مواد الصراع المقنن إلى اليوم.

وكانﷺ في مرحلة المدينة مالكاً قرار الحكم والعلم وجزءاً من القرار الشعبي، ولهذا كان لابد لتلك القوى المناهضة أن تستسلم نوعاً ما وتستخدم المبررات والأساليب والحيل والأحابيل كي ترجف الواقع وتغنم الحيرة في الناس.

إن قوة الوحي القرآني وإيمان العُصْبَة السابقة للإسلام كان هو العمود الفقري لاستقامة أمر الدعوة والرسالة بين عشرات المتناقضات التي يعمل الشيطان جاهداً على إثارتها بواسطة وكلائه في المرحلة.

ولهذا فإن التربية التي كانﷺ يحرص على بقائها في الواقع الإنساني كانت محصورة فيمن علّمهمﷺ المواقف وكانت لهم في هذا الشأن سابقة ومعاصرة.

والمقياس الحق في علاقتنا بالإسلام أن نبحث عن المواقف التي صنعوها - بأمر الله تعالى - أولئك القوم في حياة المصطفىﷺ في أشد مراحل الحرج لنعطيهم الحق في مواقفهم التي اجتهدوها بعد انقطاع الوحي وموت رسول اللهﷺ.

وفي ذات الوقت نضع الأقاويل والأضاليل التي تنتجها المدرسة الأنوية بـ(مواقفها السلبية) ونردها على أصحابها ومن لف لفهم من المرجفين عبر الأزمنة والعصور.

إن أمامنا عدة مجموعات يجب أن نتعرف عليها في مفهوم القدوة الحسنة بعمومها:

١- رسول الله ﷺ.

٢- الخلفاء الراشدون الوارثون قرار مرحلة النبوة بالإجماع.

٣- السابقون للإسلام من العشرة المبشرين وأهل بدر.

٤- آل البيت الأطهار.

٥- التابعون لهم بإحسان من العلماء والأولياء والصالحين من رجال الأخلاق وأسانيد العلم.

وتتبعها في التعرف والاقتداء قراءة مواقف التميز لدى الآل الكرام والصحابة الأعلام حسب المراحل:

١- المرحلة الأولى: المرحلة المكية والمدنية ومواقف صاحب الرسالة.

٢- المرحلة الثانية: مرحلة الخلافة الراشدة والنظر إلى مجريات الاختلاف بعين المواقف الشرعية على عهد رسول الله وليس على أساس تحليل المواقف بعين الناقضين والمغرضين والمفسدين.

٣- ويدعم هذه المرحلة الوقوف الواعي كما سبق ذكره في الفصول السابقة النظر إلى مواقف:

- السيدة فاطمة رضي الله عنها، وقد قبلت الواقع وآثرت السكوت وحفظت رأيها في كافة الأمور، ولم تثر معركة ولم تشهر سلاحاً، وقد اختارها الله إلى جواره والأمر لا زال في بداياته.
- الإمام علي بن أبي طالب: وكان له رأي شخصي في شأن الشورى لا في شأن التعيين، وتبلور الموقف الأخير على البيعة والمشاركة في بناء المرحلة دون تقية ولا خوف، ويعتمد هنا الأخذ برأي الإمام علي وفاطمة رضي الله عنهما في الموافقة لأن الرأي الآخر الذي عارض الخلافة اعتمد في نقض الثوابت على ما يعزى لهما من الحق المنصوص فيما يعتقد، وقد أوقف العمل بهما كل من علي وفاطمة رضي الله عنهما ولم يوصيا أحداً بثورة ولا بموقف معارض.

ولأن بيت النبوة وهو بيت الوراثة المعترف به لدى الجميع سواء على مستوى أهل الحكم أو أهل العلم فلا بد من دراسة تميزهم في كون فاطمة الزهراء وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما هما ثمرة من ثمار الوحي الشريف زواجاً ومقاماً وذرية، وتشير الأحاديث والآيات الكثيرة إلى تميزهما وتفردهما الشرعي.

وبعد موت السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها بقي للإمام علي رضي الله عنه التميز والتفرد من جهتين:

الأولى: كونه أصل الذرية المباركة الباقية من أهل الكساء.

الثانية: أنه جمع بين فضيلة الآل وفضيلة الصحبة لرسول الله وفضيلة الأخوة وفضيلة العلم وفضيلة السابقة للإسلام.

وهذا هو الأصل في تميزه وتفرده من حيث الخصوصيات أما من حيث المفاضلة المعروفة في ترتيب الخلافة فذاك أمر قد أشبع الفصل فيه ولا ننازع أحداً بشأنه.

إننا في إشارتنا هنا للإمام علي رضي الله عنه لا نغير ما اتَّفق عليه علماء السُنَّة في ترتيب الأفضلية، وإنما نحن بصدد وضع مفهوم التميز والتفرد الذي بنينا عليه ما يتعلق بفقه التحولات ودورها، أي: مواقف الإمام ومواقف الزهراء في

تثبيت مرحلة الخلافة الراشدة وسلامة انتقال قرار الحكم والعلم من عهد الرسالة إلى عهد الاجتهاد الشرعي على الوجه التام.

فموقف الزهراء عليها السلام - كما سبق ذكره - موقفٌ من مواقف السلامة وليس من مواقف الإثارة والتحريش ضد القرار، وأياً كان فقه التبريرات الذي نسجته مدارس النقض لقرار الخلافة فإن مواقف الصدور لا تشفع لهذا الفهم الخاطئ ولا تؤيده من كافة الوجوه.

وقد فهم البعض من قضية (فدك) ما أوقعهم في سوء الفهم وسوء النتائج في الولاء والبراء، والحقيقة التي يجب أن يدركها الجميع أنه لما توفي رسول اللهﷺ وبويع أبا بكر أرسلت فاطمة – عليها السلام – تسأل ميراثها من رسول اللهﷺ مما أفاء الله على نبيه من (فدك) فأجابها أبو بكر رضي الله عنه أنَّ رسول اللهﷺ قال: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة إنما يأكل آل محمداً من هذا المال» يعني مال الله، وقال رضي الله عنه: «وإني والله لا أغير شيئاً من صدقات رسول اللهﷺ التي كانت في عهده وعملي فيها بما عمل منها رسول اللهﷺ»، وقالؓ: «والذي نفسي بيده لقرابة رسول اللهﷺ أحبّ إلي من أن أصِلَ قرابتي»، ولما ذكر الصديق هذا لفاطمة - عليها السلام - تراجعت عن ذلك ولم تتكلّم بعد في هذا الأمر حتى ماتت.

وجاء في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: «أن أبا بكر قال لها: إن لـك مـا لأبيك. وكان رسول الله ﷺ يأخذ من فدك قوتكم ويقسم الباقي ويحمـل منـه في سبيل الله ولك علي عهداً أن أصنع بها كما كان يصنع، فرضيت بذلك، وأخـذت العهد عليه به»[1].

مع العلم أن (فدك) لم تكن تخص فاطمة الزهراء - عليها السلام - وحدها، بل كان من الورّاث ابنتا الصديق والفاروق ولم يورث الصديق والفاروق ابنتاهما كما لم يورثا فاطمة عليها السلام، وكذلك العباس عم النبي ﷺ وهو مـن ورثتـه، وعلى ذلك فلم يرث، وذكر السيد مرتضى الملقب بعلـم الهـدى إمـام الـشيعة أنَّ الأمر لما وصل إلى عليّ بن أبي طالب كلم في رد فدك فقال: «إني لأستحي مـن الله أن أرد شيئاً منع منه أبو بكر وأمضاه عمر» اهـ.

ولما سُئل أبو جعفر محمد الباقر عن ذلك بقولهم: «أرأيت أبا بكر وعمر: هل ظلماكم من حقكم شيئاً؟ أو قال: ذهبا من حقكم بشيء؟ فقال: لا، والذي أنـزل

---

(١) اهـ نهج البلاغة لابن ميثم البحراني ٥/ ١٠٧.

وفيه أيضاً: «أن أبا بكر كان يأخذ الفيء (أي: فدك) فيدفع إليهم (أهل البيـت) منهـا ما يكفيهم، ويقسم الباقي، فكان عمـر كـذلك، ثـم كـان عـثمان كـذلك، ثـم كـان عـليّ كذلك».

القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيراً ما ظلمانا من حقنا مثقال حبة من خردل. قلت: جعلت فداك أفتتولاهما؟ قال: نعم ويحك تولهما في الدنيا والآخرة وما أصابك ففي عنقي»[1].

ولم تتجيش ضد القرار جيوش ولا حتى مجموعات تحت قيادة أحد من آل البيت باعتبار ما يقوله البعض من شعورهم بالظلم والإقصاء، وما كانت عبارات العباس رضي الله عنه والإمام علي عن التخوف للأمر بعد رسول الله ﷺ إلا رأي يؤيد سكوت رسول الله ﷺ عن مسألة التعيين للوصاية من بعده.

وفي كل الأحوال فالعباس والإمام علي رضي الله عنهما هما المعنيان بالتوقف أمام القرار ورفضه وإعادة الحق إلى نصابه ومعهم المؤمنون السابقون كلهم إن كان القرار قد خرج عن أهله.

ولأنهم – أي آل البيت – قد قبلوا الأمر وصاروا جزءاً من تثبيته فمواقفهم تعادل الاجتهاد الشرعي القائم على النص، لأنهم أئمة الهدى، ولا يقبل في حق أئمة الهدى رضاهم على الخطأ فيما دون القرار، فكيف بالقرار؟

إن فقه المواقف أو ما سمي بسنة المواقف في فقه التحولات يؤكد خطأ الطاعنين في سلامة موقف أهل البيت من قبول القرار ومشاركتهم فيه، ولهذا

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤/ ٨٢.

اضطر أولئك الناقضون أن يخترعوا فقه التقية للخروج من الأزمة التي اتهموا فيها الإمام علي ومن معه من أهل بيته بالسكوت.

والسكوت في فقه التحولات موقف يقتدى به ويعتمد عليه إذا صدر من أئمة الهدى، وهو أسلم وأقوم من سلسلة الروايات والشناعات التي حيكت حول القرار ومتعلقاته، فأصحاب رسول الله ﷺ أوثق وأصدق من أن يرتدوا بعد رسول الله لمجرد الرغبة في السلطان والحكم، وهذا التوثيق ليس اختراعاً ولا عاطفة ولا انحيازاً وإنما تأييداً لنصوص القرآن والسنة في سلامة مواقف واجتهاد السابقين إلى الإسلام وكذب وإفك الناقضين حصانة الصحابة الأعلام.

وإذا كان الأمر لدى فريق قد بنى على النص ولدى فريق آخر على العاطفة.. فإننا نضع النص والعاطفة معاً والعقل في ميزان القراءة الواعية لمواقف النبوة هذه المواقف التي قال عنها الإمام الحسن لأخيه: «إني لأرى أنها لا تجتمع لنا الخلافة والنبوة».

فالنبوة هنا هي الميراث النبوي كله مع المواقف الأخلاقية المحمدية، وهي سلوك الأئمة الأكابر - أي آل البيت - من النمط الأوسط، وقد احتفظ بها رجالها وحرصوا على عدم تدنيسها بتحريش الأبالسة، ورموا بالقرار السياسي

لمن يتهافتون على امتلاكه واستحلابه واستثماره إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

إن هذه المسألة (ترك القرار السياسي) مفصل هام في تاريخ الأمة الإسلامية بعد رسول الله ﷺ وقد أشار ﷺ إلى ذلك وعبر عنه بمفهوم النقض في قوله «أولهن نقضا الحكم» والحكم هو القرار السياسي، ولم يشرﷺ إلى عودته ـ أي: القرار ـ إلى وضعه الطبيعي، بل أشار إلى حصول نواقض أخرى في قرارات الإسلام كلها، كما أشار إلى أهمية دور الشعوب في هذه المرحلة، وهم كما يظهر حملة المنهج الأبوي النبوي الثابت لقولهﷺ: «كلما نقضت عروة تمسّك الناس بالتي تليها».

فالساسة والقادة والأقماع من أصحاب الطموحات والعقد والعواطف والجهالات لا يشغلهم غير نقض الحكم إذا لم يرق لهم شأنه أو المنافحة عنه والموت دونه إذا ملكوه، ولهذا فهم في أحايين كثيرة يسهمون بعلم وبغير علم في إنجاح مشروع الشيطان في نقض العرى المتلاحقة، وربما التآمر عليها مع من يمنحهم البقاء في موقع القرار، وخاصة في عصور الغثاء والوهن، وقد آل أمر القرار والترشيح لامتلاكه بيد المستثمرين والمستعمرين.

إن قضية الحكم أو القرار السياسي قضية واحدة، وإنما الاختلاف في المراحل والأوعية والسقوف الحامية للقرار، ولهذا فإن مسألة الاهتداء والاقتداء في قضية القرار واعتبارها جزءاً من أمر الديانة والتدين يلزم المتمسك بهذه المبادئ أن لا يقع فريسة الأبواق وهيشات الأسواق، حتى وإن كان الشيطان قد سلب الشعوب ثقافة الاهتداء والاقتداء بالأثبات، ومنحهم الإعجاب والجدلية والطموح والتنافس والعزم والتصميم على حد الامتلاك أو حب الانتقام، بعد أن غلف هذه المسميات الطبعية بمسميات علمية ذات تأثير إعلامي عجيب وخاصة في المتأثرين من أحفاد (بقية السيف وسادة الصُلح) دون علم واع ومعرفة شرعية مسندة، وهذا موقف هام غاب عن كثير منهم كما غاب أساس منهجيتهم الأبوية.

ولأجل هذا فإن الهجمات المتكررة من أعداء هذه المنهجية والمغرضين حولها والمندفعين أو المنتفعين يعملون جاهدين لزعزعة الثقة بثوابت أئمة آل البيت عموماً وبثوابت مدرسة حضرموت خصوصاً، وربطهم غاية ومصيراً ومذهباً ورؤية بمذاهب الإفراط والتفريط المعروفه تحت العديد من المبررات المحبوكة للزج بهم وبغيرهم في أتون معركة الصراع على القرار، حتى لا يبقى أحد من آل البيت يحمل منهجية النمط الأوسط، ولا يبقى في الأمة من يرغب السلامة

الشرعية، وهنا يتحقق مطلب الشيطان وينتصر الدجال ويستلم الدجاجلة العائد، وأقول هذا وأكتبه؛ وقد تحقق الجزء الأكبر من هذه السياسة في الواقع المخذول وللأسف.

إن الكثير من إخواننا المندفعين والمنتفعين ومن غيرهم لا يرضيهم مثل هذا التعليل مع علمهم بعدالته وصحته، لكن الوجهة السياسية التي لم يتخلصوا من عقدتها تملي عليهم التحايل ضد هذه التعليلات وتصنيفها كما يحلو لهم وكما ترضي عقدتهم المألوفة.

ولأن هذا التصنيف والتحايل من أولئك لا يمت إلى الحقيقة المفقودة بشيء فإننا نصر ونجزم على وجوب البحث الواعي عن الحقيقة المفقودة وعن مصادرها، ومصادرها ليست عند الطامعين ولا الطامحين، وإنما لدى الزهّاد والأئمة الصادقون.

إنا قد تخلصنا من عقدة البحث عن القرار ومسؤولياته، فلهذا لا نميل إلى قراءة فقه السياسات والتسييس وإنما نضعها في موقعها من فقه التحولات فقط، وندعو الله تعالى أن يجزي آباءنا ورجال مدرستنا الأبوية النبوية خير الجزاء على ما فعلوا.

وإذا كان لنا نصيب من التحديث والتجديد فلن يكون في البحث عن القرار وامتلاكه، وإنما في خدمة الشعوب وبناء الأجيال ومناصحة حملة القرار إن كان هناك مناصحة مفيدة ومجدية، وإلا فإن ما رسمه الرجال في بناء الحياتين كاف لنا ولغيرنا ولله الحمد.

وعلى الطامعين والطامحين أحد أمرين:

إما أن يصنفونا مع من يعتقدون فيهم الخيانة عبر التاريخ ويظل حكمهم جزءاً من أجزاء الوراثة والتوريث للحقد والضغائن الطبعية المركبة، وهذا عين المخالفة للحق.

وإما أن يقرؤوا المواقف الشرعية بعيداً عن ركام الأحداث والتحولات وما ترتب عليه من أحقاد وضغائن، ويتعلموا وضع كل عنصر في موقعه من الحق والباطل، بعد النظر الواعي للأمور ولمواقف الأئمة الصدور، ليجنبوا أنفسهم أولاً الموت على الإفراط أو التفريط، ولينقلوا إلى الأجيال القادمة سلامة المواقف وحسن أخلاق أئمة آل البيت وعدالة الصحابة الأثبات، كما هي في لسان النبوة ذاتها، وليس من منطلق الأحداث المتحولة، إضافة إلى تحديد سمات الخيانة لدى من دمغتهم النصوص النبوية، دون تعميم التهمة وإلصاق الانحراف بالأئمة العدول ومن حصنتهم سابقة الإسلام وبشارات رسول الله ﷺ.

إنَّ آل البيت من (بقية السيف وسادة الصُلح الواعي) ومن تـبعهم يخـالفون أهل الإفراط والتفريط فيما جنحوا إليه من إطلاق الـسب والـشتم والوقيعـة في المبشرين بالجنة وأهل بدر، ويتعففون عن تناول غـيرهم أيـضاً بـاللعن والـسب الـصريح الـذي تتبنـاه مـدارس الإفـراط والتفـريط، ويتـذكرون قـول المعلـم الأعظمﷺ: «إني لم أُبعَث لعّاناً وإنما بُعِثت رحمةً»[1] وهم بهذا الموقف قد تخلـصوا من عقدة الطبع الراغبة في الانتقام وأخذ الحق باليـد واللـسان، واستعاضـوا بـما عند اللهﷻ الذي ينصر المظلوم ويدفع عن الحق وأهلـه، ويعـوض المـسلوبين مـا سُلبوه بأفضل وأحسن وأكرم مما في الحيـاة الـدنيا، بـل إن كـسر الـسيف الـذي اختاره الفقيه المقدم في القرن السادس لم يأت اعتباطاً ولا جهلاً بالنصوص، بـل التزاماً لها، ففي الحديث الذي رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ٢١/ ٢٥ تحقيق محمـد عوامة: «قال: رسول اللهﷺ: إنها ستكون فتنةٌ المُضطَجِعُ فيها خيرٌ مِـنَ الجـالس، والجالس خيرٌ مِنَ الماشي، والماشي خيرٌ من الساعي. فقال رجل: يا رسول الله: ما تأمرني؟ قال: مَنْ كانت له إبل فليلحق بإبله، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمـه،

---

(١) أخرجه مسلم في صـحيحه (٢/ ٤٣٥) مـن حـديث أبي هريـرة قـال: «قيـل: يـا رسول الله: ادعُ على المشركين. قال: إني لم أبعث لعّاناً، وإنما بُعِثْتُ رحمة».

ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه، ومن لم يكن له شيء مـن ذلـك فليعمـد إلى سيفه فليضرب حده على صخرة، ثم لينجُ إن استطاع النجاة».

فقه القرار وموقعه من التحريش والسلامة

ما هو القرار؟

وما هي السياسة؟

وما هو التسييس؟

ومَنْ هُمُ السَّاسة؟

القرار هو القوة الفاعلة في شؤون الأمة سلماً وحرباً وقوة وضعفاً وعقيدة ومعاملة.

والسياسة هي إدارة دفة شؤون القرار بكافة وجوهه.

والتسييس هو تطويع الإدارة وفق المصالح الاختيارية.

والساسة هم حملة القرار بالجدارة أو بغيرها.

وقد أعطى الإسلام القرار موقعاً هاماً في حياة الشعوب وسلامة استقرارها، وجعله قسمين أساسيين:

١- قرار الحكم (الخلافة والشورى).

٢- قرار العلم والأخلاق (النبوة والتزكية).

وجرى الاختلاف بين المسلمين مجراه في فهم (امتلاك القرار) ومن هم أهله، فهناك من يدمج بين قرار الحكم وقرار العلم والنبوة في أسرة واحدة ولا مجال للغير، وهناك من يجعل قرار الحكم قائماً على الشورى بين المسلمين، أما قرار العلم والنبوة فله أهله من أئمة آل البيت وعلماء الملة الصدور.

وقد أدى اختلاف الفهم لدى بعض المسلمين إلى افتعال الصراع والنزاع والخروج عن الجادة في تعليل أمر القرار وامتلاكه وتحول الأمر إلى فرق وجماعات وأفكار ورؤى ومدارس ذات تيارات سياسية.

والتيار هو التوجه الاندفاعي القاهر المحرك لجملة الموجودات نحو هدف معين، ولكل تيار بواعثه وأسبابه ونتائجه وثمراته وفوائده واستثماراته، والسياسة هي إطار لفكرة معينة وتوجه مبرمج قد يكون شرعياً - وهذا ما نحن بصدده- وقد يكون وضعياً أو مُستثمِراً للجانب الشرعي ومُفَرِّغاً محتواه.

فالتيار السياسي لابد أن يكون له إطار يحويه، أو يحتويه وله قرار وقوة تحميه، وله استراتيجية وضوابط تهديه، ومنطلق السياسة في الإسلام النصوص، وضابطها الأخلاق النبوية أو ما سميناه في (فقه التحولات) بسنن المواقف، حيث إن الأخلاق ضابط شرعي مرن لتطبيق النصوص واستجلاب النفوس والعقول لما فيه مصلحتها الدينية والدنيوية.

ومنطلق التسييس في منظور الإسلام تغليب الطبع على الشرع، أو حصول دخن في الولاء، أو استجابة لعوامل نفعية.

والسياسيون الأولون كان ضابطهم الالتزام بشرعية الوحي والاجتهاد الشرعي القائم على سلامة الولاء وحسن الأخلاق، فكان اجتهادهم مشروعاً وإن خالفوا رغبات أو فهم واجتهاد آخرين، وكان ضابط سلامة تطبيقهم لهذه النصوص رصيدهم الإيماني ومواقف الرسول منهم وتوثيقه لهم ومعالجته معهم لهذه المسألة في حياته الأولى بمكة وحياته الثانية بالمدينة.

ومع هذا وذاك فالسياسة لم تسلم في الأولين من عثرات، ولكنها مع عثراتها في الصدور السابقين لم تخرج عن ضوابطها الشرعية، فهم في كل أحوالهم عُدُول.

وعندما سرى الخلل فيما بعد إلى مواقف الساسة سرى الخلل إلى السياسة، ومن خلال السياسة جاء التسييس، فانقلب المجنّ على أهله، وكما سبقت الإشارة فإن أهل الإسلام اختلفوا في فهم الخلل المؤدي إلى فساد السياسة وطال الجدل في هذا الباب ولم ينغلق، ولكنا هنا نقرر موقف النمط الأوسط من (بقية السيف وسادة الصُلح).

وقد أمرنا بالاقتداء بهم والسير على نهجهم وصارت مدرستنا إحدى مدارس النمط الأوسط، تعالج الأمور في الحياة الاجتماعية بأسلوبهم الواعي

ومنهجيتهم الوسطية الأبوية، ومن هذه المنهجية صارت السياسة تعادل المواقف بضوابطها، ففقه المواقف في فقه التحولات هي سياسة العدول أمام التحول، وبهذا تكتسب الشرعية؛ لأنها مواقف الأئمة الهداة من النمط الأوسط.

ولابد لنا أن نفرق بين مواقف الأئمة الهداة من النمط الأوسط وبين الأئمة من طرفي الإفراط أو التفريط، فلكلٍّ حُجَّته واجتهاده، والخلل السياسي في فهم مدرسة النمط الأوسط هو ناتج عن اختيار ذاتي مخالف لرأي الجماعة ومنازع لحكم الشورى، أو أن يكون موقفاً عكسياً ضد اتفاق الجماعة، ورافضاً للشورى.

كما أن الخلل السياسي يحدث بفرض رأي الفرد فيما لا نص له ولا إجماع عليه، ويترتب عليه تغيير سنة شرعية إما بالخدعة أو الحيلة أو قوة السلطان أو السلاح.

وهناك في الإسلام نصوص شرعية تؤكد حصول الخلل السياسي في بعض الأفراد والمراحل وحملة القرار، ومثل هذه النصوص تعد في فهم رجال النمط الأوسط حُجَّةً على الفرد وعلى المرحلة وعلى حامل القرار، ومؤكدة شرعاً حصول الخلل السياسي؛ ولو كان الفرد أو المرحلة أو حامل القرار يعمل على خدمة الإسلام، كما هو النص في مسمى الملك العضوض وأغيلمة قريش وغيرها.

ويترتب على حصول هذا الخلل السياسي موقفاً لدى أتباع النمط الأوسط يتلاءم مع الحالة ذاتها أو مع المرحلة أو مع حامل القرار، وليست شرطاً في قاموس النمط الأوسط أن يكون الموقف قتالياً أو مطالبة بالقرار أو مشاركة فيه، وإنما قد يكون الموقف الأولي والأنفع هو الانسحاب الإيجابي والسكون وعدم المشاركة في الظلم والتسييس، وهذا ما فعله جملة من رجال النمط الأوسط من (بقية السيف وسادة الصُلح الواعي) رضي الله عنهم وأرضاهم.

ومنهم آخرون خرجوا على الظلمة وقاتلوا وقُتِلُوا، فصار موقفهم الاجتهادي درساً إضافياً لأئمة السلامة في منهج النمط الأوسط يترتب عليه تأكيد موقف الملتزمين بأمر السلامة مع حملة القرار مقابل خدمة الشعوب في التزام الاستقرار طيلة مراحل الخلل السياسي، وإلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

إن القراءة الواعية لمواقف رجال النمط الأوسط هي جزء لا يتجزأ من قراءة (أدب النبوة) التي يترجح بها مفهوم الكتاب والسنة على فهم معنى قولهﷺ: «عليكم بسُنتي وسُنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي...»[1]، ومن هذه القراءة الواعية قراءة مواقف الإمام الحسن بن علي رضي الله عنه.

(١) تقدَّم تخريجه.

فالعجيب في هذه المرحلة أن الإمام الحسن لم يكن كغيره مطالباً بقرار أو خارجاً ضد ظالم لإعادة القرار بل كان الحسن رضي الله عنه متربعاً على عرش القرار بجدارة، ولكنه أحسن القراءة لأخلاق النبوة عندما رأى المسرح حافلاً بالانفجار أو يكاد، فاختار السلامة، وكانت السلامة من نموذج خاص، وهو التضحية بالقرار ذاته، وقد أشرنا إلى مثل هذا في الفصول السابقة.

ولكنا هنا نشير إلى أن هذا الموقف الخطير والخطير جداً قد دعم المنهج الأوعى للنمط الاوسط حول القرار السياسي من وجهين:

الوجه الأول: قراءته الواعية للمرحلة وما تقتضيه الضرورة الملحة من اتخاذ المواقف وتحديه لكافة النماذج المتنازعة داخل إدارته بمن فيهم الحاملين له على قبول البيعة، وحمل القرار السياسي بالإجماع.

الوجه الثاني: تأكيد سلامة المنهج الواعي بالنص النبوي الذي يدحض كافة أقاويل الأطراف المخالفة لموقفه الجديد: «إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[1].

(١) تقدَّم تخريجه.

لقد رأى الإمام الحسن عمق الخلل السياسي لدى معارضيه سواء في عصر والده أو في عصره، بصرف النظر عن مسميات العدالة التي يتحدثون عنها، والحجج التي يقيمونها في سبيل الاستمرار.

كما رأى أيضاً خللاً سياسياً لدى الموالين له في المرحلة ورأى أن قضية الامتلاك للقرار السياسي صارت لدى الجميع إلهاً يُعبَد، فضحّى بالصنم المعبود، وكان شجاعاً ومن نمط خاص.

لقد اتخذ الإمام الحسن قراراً عالمياً أسهم في حفظ النبوة كلها ليبرز لنا وللعالم كله منهج السلامة وشرف (بقية السيف وسادة الصُلح الواعي) ورجال النمط الأوسط وأئمة الهدى من حملة مرتبة الإحسان إلخ.. وحفظ أيضاً دماء أهل الإفراط وأهل التفريط معاً، فاستحق بذلك شرف السيادة.

إن قرار السيادة الممنوح من رسول الله ﷺ للإمام الحسن كان قراراً عالمياً منذ ذلك التاريخ إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً، حيث إن الفئتين العظيمتين المتقاتلتين من المسلمين ازداد عددها وعدتها بعد مقتل الحسين فيكون قرار الصلح المدعوم بالنص علاجاً لهذه المشكلة حتى قيام الساعة، وكما عين رسول الله لمن بعده تربة الحسين الذي يستشهد عليها وأبدى حزنه من هذا الموقف الشديد إلا أنه لم يقرر موقفاً يجب اتخاذه ولا سنة شرعية، وإنما عين ﷺ شرف

موقف السلامة الذي يتبناه الإمام الحسن من قبل ليحقن دماء الجميع، وينال بـه شرف السيادة في تاريخ الإسلام كله.

ولم يكن الإمام الحسين طامعاً في حكم ولا طامحاً لامتلاكـه، وقـد أثـر عنـه قوله: «والله ما خَرَجْتُ أشراً ولا بطراً، وإنما خرجت للإصلاح في أمة جـدّي»[1] وإنما كان موقفه هو موقـف والـده الإمـام عـلي رضي الله عنـه كـما رواه الـشيعة أنفسهم فعن كتاب (مَنْ لا يحضره الخطيب) قـال المؤلـف: «لم تكـن الخلافـة في قاموس الإمام علي رضي الله عنه هدفاً بحد ذاتها وإنما هي وسيلة لتحقيق هدف فهنالك من يستهدف الخلافة والكرسي ولو على جماجم الأبرياء ودماء البائسين، بينما أمير المؤمنين يخذف نعلاً أمام أحد الصحابة ويسأله عـن قيمـة هـذا النعـل، قال: لا قيمة لها، قال: إن الله ليعلم أنها أهم عندي من خلافتكم إلا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً»[2].

---

(١) الأدب السياسي الملتزم في الإسلام، ص٩٧.

(٢) مَن لا يحضره الخطيب ٤/ ١٧١-١٧٢، والإمام الحسين إنـما دفـع بـه الـسفهاء الذين ألزموه الخروج بوضع بيعتهم في عنقه، ولم يتأخر رضي الله عنه لاستجابة الـداعي وقد وصل إليه ما يقتضي الإلزام، ولو كان مقتل الحسين رضي الله عنـه مفـصلاً شرعيـاً لاتخاذ موقف ما ضد الأمة كلها فكان لابـد أن يـبرز في النـصوص المـأثورة عـن رسـول

اللهﷺ وقد علم ما يؤول إليه الحسين في الأمة، ومع علمهﷺ بذلك فقد نهى عن البكاء عليه كما جاء في ترجمة الحسين في سير أعلام النبلاء للذهبي عن أبي أمامة.

وكما هو في مقولته عن الإمام الحسن وكما هو في سكون الإمام علي وعدم ثورته وخروجه رضي الله عنه قال: «قال رسول اللهﷺ لبناته: لا تبكوا هذا – يعني حسيناً ، فكان يوم أم سلمة، فنزل جبريل، فقال رسول اللهﷺ لأم سلمة: لا تدعي أحداً يدخل، فجاء الحسين، فبكى، فجعلته يدخل فدخل حتى جلس في حجر رسول اللهﷺ فقال جبريل: إن أمتك ستقتله. قال: يقتلونه وهم مؤمنون؟ قال: نعم، وأراه تربته» [رواه أحمد في المسند (٦/ ٢٩٤) من حديث عائشة وأم سلمة بسند صحيح.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «استأذن ملك القطر على النبيﷺ فقال النبيﷺ: يا أم سلمة احفظي علينا الباب، فجاء الحسين فاقتحم وجعل يتوثب على النبيﷺ والنبيﷺ يقبله فقال الملك: أَتُحِبّه؟ قال: نعم. قال: إن أمتك ستقتله، إن شئت أريتك المكان الذي يُقْتَل فيه، قال: نعم. فجاء بسهلة أو تراب أحمر، قال ثابت: كنا نقول أنها كربلا» رواه الأمام أحمد في مسنده[رواه أحمد في المسند (٣/ ٢٤٢، ٢٦٥) والطبراني في الكبير (٣٨١٣) قال الحافظ نور الدين الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ١٩٠) راه أحمد وأبو يعلي والبزار والطبراني بأسانيد وفيها عمار بن زادان وثقه جماعة وفيه ضعف وبقية رجال أبي يعلي رجال الصحيح].

تشير الدلائل إلى أن كافة أهل الحل والعقد الذين يعنيهم أمر الشورى والحكم في مكة والمدينة لم يستعجلوا أمر البيعة للإمام الحسين رضي الله عنه ولم يستحثوه الخروج كما سبقت الإشارة إليه، بل كانت بيعة أهل الكوفة هي سبب خروجه ثم مقتله.

وفي كل الأحوال ورغم فداحة الحدث الذي كان جزءاً من قضاء الله وقدره، فالتبعة التي عادت بمقتل الحسين لا تلزم المسلمين أن يتحملوا القصاص أو الأخذ به ، وإنما تعود المسألة على حملة قرار المُلك العَضوض آنذاك، وفي جزء منها على الذين خذلوه وتركوه فريسة للظالمين بعد مبايعته وتحميله ثقل الأمانة، وهذا ما تقرره كتب القوم أنفسهم، قال في كتاب (الأدب السياسي الملتزم في الإسلام) للدكتور صادق أذينة والدكتور حسن عباس نصر الله ص٩٧: «ثم دعاه أهل الكوفة على أن يبايعوه بالخلافة وكتبوا إليه أنهم في جيش مهيأ للوثوب على الأمويين فلبى دعوتهم وقال: والله ما خرجت أشراً ولا بطراً إنما خرجت للإصلاح في أمة جدي، لكن شيعته خذلته بعدما اشترى عبيد الله بن زياد ضمائرهم ودينهم بالدراهم، فنقضوا العهد وتخلوا عن الحسين وأسلموه جيش يزيد، فقُتِل في كربلاء يوم العاشر من محرم سنة ٦٠ هـ وقتل معه أصحابه وأهله في قرابة سبعين رجلاً ، وما زالت الشيعة تحيي ذكراه كل عام حيث تقرأ السيرة الحسينية وتتلى البطولات والتضحيات مما ألف مدرسة كربلائية كانت حافزاً للشيعة على الاستمرار» اهـ.

ولم نشر هنا إلى هذه النصوص لنبطل منهج البكائين على الحسين رضي الله عنه أو لمنعهم عن إظهار الحزن الشعبي على مقتله، بل لنذكر الأمة بعدم الإلزام عليها شرعاً أن تعمل مثل هذا ولا أن تشتغل اليوم بأخذ الثأر من المسلمين بعد القرون الطويلة التي ذهب فيها الجميع إلى العالم الآخر، وإنما نذكر الجميع بمعالجة الجراح وحسن الاهتداء والاقتداء بالمتبوع الأعظم ﷺ وبخلفائه، ومنهم الإمام علي زين العابدين ومن في عهده من أهله، فهؤلاء لم يقيموا مأتماً ولم يلبسوا سواداً ولم يجيشوا شعوباً ضد بعضهم البعض،

وبهذه الأنماط الواعية تقرر لدى مدارس السلامة من رجال النمط الأوسط ومن سار على مذهبهم أن ترك القرار يحفظ الاستقرار، وأنه استثمار عادل للشعوب كي تنهض بنفسها على ما تلتزم به من شرف النبوة ولو كان القرار السياسي مصاب بالخلل، وقد ترتب على هذا المبدأ حفظ شرف المدرسة الإسلامية العالمية في نموذجها الشرعي الملتزم بقرار النبوة في العلم والأخلاق بعيداً عن الفتن والاضطرابات، سواء في المراحل الأولى من حياة صدور الأئمة أهل النمط الأوسط أو فيها بعد سقوط القرار الإسلامي العالمي خلال مراحل الوهن والغثاء المسيس.

فالمدرسة الأبوية الشرعية في وجهها العلمي الأخلاقي ظلت ملتزمة بالديانة ونشرها في الأمة بعيداً عن المعارك الدامية والتنافسات المترامية، ملتزمة بإنقاذ ما يمكن إنقاذه في طوفان التحولات السياسية والمسيّسة.

وإنما فعل هذا ودعا إليه قوم لهم في الأمر رأي ومندوحة بها لزمهم من عقدة الذنب وتفريط الأصول، ونحن لا نرى في هذه الجزئية الاختيارية أمراً يجب الوقوف عنده أو الاختلاف عليه، فمنهجنا منهج النمط الوسط من بقية السيف، وإليه ندعو وعليه نحيا ونموت ونبعث، ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة:١٤٨].

وكما هو معلوم في مسيرة التاريخ أن بقاء الشيء على أصله من المستحيلات، لكن نسبية الحفظ واستمرار آثاره وغراسه يمكن تحديده وتحديثه وإحياؤه، ولهذا فإن الساسة العالميين والوكلاء المنتفعين قد تظافروا قديماً وحديثاً على تجفيف منابع الإسلام الأبوي سواء من أتباع النمط الأوسط عموماً أو من بقية السيف خصوصاً، بل وحتى من طرفي الإفراط والتفريط، فالكل أمام المستثمر عدو واحد، فالمستثمر من مهماته أن يسخر الاختلاف وأسباب الخلاف لمصلحته في المختلفين لينهدم البناء بأيدي أهله على بعضهم البعض، وهذا هو العمل الدؤوب حتى اليوم.

وإن بقي شيء من الحفظ لما نحن بصدده فإنما هو باق بحفظ الله، فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الروم:١٩].

ظاهرة الانسلاخ عن النمط الأوسط لدى الأتباع

في كل مرحلة من مراحل التغيرات السياسية تبرز عدة وجهات وقضايا واتجاهات، ويكون لهذه الوجهات والقضايا اختراق للواقع وتأثير عليه، وبمقدار قوة الإعلام وعوامل تأثير الثقافة وضغوط الاستتباع، وضعف محصلات الوعي بالطريقة والمدرسة والالتزام تنجلي بوضوح ظاهرة تَخَلي الأجيال عن التمسك بمفاهيم وعلاقات النمط الأوسط والتأثر بها ليس من دائرتهم وثقافتهم الأبوية.

فحيناً على صفة الخروج والمروق الكلّي خارج دائرة الديانة – كما جرى في مرحلة الشيوعية – وقراءة الديانة والتديّن بمنظور اشتراكي مُلحِد.

وحيناً على صفة الاستحسان لمذاهب النقض والقبض، والانطواء تحت مظلة شيوخها وأسقفها السياسية والاقتصادية، وقراءة الديانة والتدين بمنظور حركي طبعي مسيّس، مختلف الأنماط والنماذج.

وحيناً على صِفَة الانطواء في الأحزاب الدينية الإسلامية ذات العلاقة بالتكوين السياسي للمرحلة، وتحت سقوفها التنظيمية المحضورة حيناً في الواقع الغثائي والمسيسة حيناً من خارجه.

وحيناً على صِفَةِ التمرُّد المبطّن ضـد القـديم المهـترئ، والتحـوّل المبـاشر إلى معطيات الحضارة الحديثة الداعية إلى التجديد والتحرر من القديم بكافة نماذجه وأُطُرِه المتوارثة، ويحمل هذا الفكر غالباً في الواقـع العـربي والإسـلامي دُعـاة المدارس العلمانية والعلمنيـة والعولمية المبهـورون بالمـادة وتطورهـا العلمـي في الحياة، والمنطلقون في تفسير مفهوم التطور الإنساني من الرؤى الغربية أو الرؤى الثقافية التوليفية.

وحيناً على صِفَة الثورة الطائفية ضد مذاهب أهل السُنَّة بعمومهـا اتهامـاً لهـا بأنها جزء من تركيبة المُلْك العَضوض، ومعبرة عن قراره، وحتى من كان في هذه المذاهب من آل البيت أنفسهم، فإن الصراع الطائفي يأبى عـلى الكثـير مـنهم أن ينصفوا آل البيت المخالفين وجهة نظـرهم، مـثلهم مثـل غـيرهم مـن آل البيـت المظلومين أو حتى أن يقفوا إلى جانبهم فيما ظُلِمُوا فيه باعتبارهم جـزءاً لا يتجـزأ من السلالة الطاهرة، وهذا ما يسمّى في فقـه التحـولات بــ(الـصراع الطـائفي) الذي يدفع بالمرء إلى التعصُّب المقيت ضـد مَـنْ يخالفـه الـرأي ولـو كـان الـنصُّ والموقف لا يـشفع لـه بـذلك، حتـى إن القـرآن يـشير إلى ضرورة الـصلح بـين الطوائف عنـد الاخـتلاف ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحُجُرات:٩].

والإشارة في القرآن واضحة ضد الصراع من أساسه، والمخاطبة القرآنية نداء لمثل رجال النمط الأوسط أن يتدخلوا بين الطائفتين لإعادة الحق إلى نصابه وجمع الكلمة بين المتصارعين، ولو باستخدام السلاح إذا لزم.

وهذا النداء قد تجاوزته المراحل وأوصلته الأحقاد والتناقضات إلى أوج التصادم والمواجهة، بل وإلى الزج بأهل الاعتدال والتوسط في أتون المعركة.

كما يبدو أن كافة النماذج المشار إليها سلفاً قد أسهمت إسهاماً بالغاً – منذ بدايات عهد الغثاء – في انسلاخ العشرات من أتباع مدارس النمط الأوسط إلى ما يعارضها من الدعوات والمفاهيم، ويتحدد العامل الرئيس في هذا الانسلاخ بما يلي:

١- تحول العالم العربي والإسلامي عن مرحلة القرار الواحد إلى القرار المجزأ بحيث يصعب على المسلمين اتخاذ قرار موحّد.

٢- امتلاك العالم الغربي قرار المرحلة وتسيير دفة الشعوب فيها مع تسيير دفة الأنظمة ومخرجاتها.

٣- إضعاف الدراسة والثقافة الإسلامية الأبوية بكافة أنماطها، وإدخالها في مفاهيم (التطبيع والتسييس) لقبول ثقافة الآخر مقابل نفي وتجفيف منابع الثقافة الإسلامية الأبوية.

٤- تشجيع الرؤى الإسلامية المسيسة والمتناقضة لاستلام مواقع القرار بديلاً عن المذاهب الإسلامية العالمية وأشياخها لإنجاح سياسته ورؤيته.

٥- تسخير الوسائل الإعلامية المتنوعة لكشف متناقضات وعيوب وأخطاء وإفراط وتفريط المدارس الأبوية، ونقض ثقة الأجيال الحائرة بمنهجية الإسلام المتوارثة من خلال المتناقضات وحجب المحاسن والفضائل.

٦- دفع الأجيال التعليمية والثقافية من أبناء وأحفاد المدرسة الأبوية بعد انقطاعهم عن منابع مدارسهم التقليدية إلى الدراسات العلمية الحديثة المجردة عن الارتباط بالثقافة الأبوية خصوصاً وعموماً، وتزيين علم الخدمات وإثارة العواطف كبديل عن علوم الديانة الشرعية وأخلاقها، حتى تلين العرائك.. وقد لانت.

وبهذا وبمثله وأمثاله من سياسات الغثاء والوهن برز في واقعنا المعاصر نماذج الرافضين والمنسلخين والشاتمين واللاعنين والمتربصين وهلم جراً، وكثيراً منهم لا يعلمون أنهم قد خُدِعُوا واستأثر الشيطان بعواطفهم لتدمير بناء دينهم وشرعتهم، ولو علموا ذلك ما فعلوا شيئاً مما هم عليه وإليه، ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:١١٢].

لقد اشترك المئات والآلاف من أبناء الإسلام في معركة الهدم ضد مدارسهم الأبوية وهم يعتقدون أنهم ينصرون الملة والدعوة في الإسلام ويطهّرونها مِنَ الإفك والشِّرك والبدعة والخيالات والاستحضارات وعبادة الذوات والجهالات الخ...

والحقيقة السياسية أنهم ينفذون خطة سياسية ضد هوياتهم التاريخية والإسلامية، وتحت سمع وبصر خبراء التسييس والتدنيس، وقد حققوا في مسيرتهم الانسلاخية أوسع مساحات الاستثمار في الإنسان رجلاً أو امرأة وفي الواقع المعاش وفي الثقافة والعلم وفي الغاية والمصير وإلى (جُحْرِ الضَّب).

لقد اعتقد المندفعون والمتفعون أنا نمنعهم عن منهج الآباء الأئمة ونحرض الأجيال ضد منهجية آل البيت وقد فعل مثل هذا أمثالهم من دعاة القبض والنقض عندما اعتبروا دعاة المدرسة الأبوية حاجزاً يمنع الشاب عن الكتاب والسُنَّة، ويشغلونهم بالترهات والزيارات والأناشيد والدروشة والاستحضارات، واعتبر هؤلاء مسألة الإعادة الشرعية للإسلام الحق واجباً شرعياً استباحوا به الدماء والفروج والأموال، وحققوا لأنفسهم وللشيطان مطلبه الإقليمي، وها هم حتى اليوم في الحياة المعاصرة لم يصنعوا للإسلام مطلباً

ولم يحققوا للشعوب الحائرة مكسباً بقدر ما حققوا الكثير والكثير لرجال المال والأعمال محلياً وعالمياً.

ولابد من البدائل ـ وها هي البدائل المجهزة مرحلياً تتحرك ببطء في مكان ما وتتحرك بحرية وقوة في مكان آخر ـ لإعادة ترتيب الواقع المحيط لتدخل مرحلة الصراع الطائفي أو ما يسمى اليوم بـ(الفوضى الخلاّقة)، وبشعارات جاهزة، والمندفعون والمنتفعون قومٌ كُثُر.

ولابد من خوض المعركة ليرتاح الإبليس بلون الدماء وهي تغطي مساحة الأرض من أجساد خصومه الآدميين، ثم ما يلبث أن يعيد ويستعيد الكرّة من جديد وبرؤى وأفكار أخرى تحقق له بالإفك والكذب ما يريد: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الحشر: ١٦-١٧].

ومع هذا كله فالأمر المقدر كائن، والمقرر من عند الله وقوعه حاصل، ولسنا حريصين على استجلاب عواطف أو عقول المخالفين ولا المحبين، وإنما نحن بصدد البيان من باب العلم الذي علمناه، وقد قال المعلم الأعظمﷺ: «إذا لَعَن

آخر هذه الأمة أولها فمن كان عنده علم فليظهره، فإن كاتم العلم يومئذ ككاتم ما أنزل على محمد ﷺ»[1].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (١-٩٧) والخطيب البغدادي في التاريخ (٩/ ٤٧٢) ومن طريقه ابن عساكر في (تبيين كذب المفتري) من حديث جابر بن عبد الله بإسناد رواه وفي الباب عن معاذ بن جبل أخرجها الخلال في السنة (٣/ ٤٩٤) والديلمي في مسند الفردوس (١/ ٤٠٠).

هل سَلِمَت مدرسة النمط الوسط من الجنوح إلى الإفراط والتفريط؟

سؤال مهم جداً، وسنجيب عليه...

ولكن قبل الإجابة: وهل سَلِمَ غيرها من الجنوح إلى الإفراط والتفريط؟ فالذين يضعون الأسئلة من هذا النمط إنما هم يشيرون بالخطأ الواضح والإدانة التي لا تقبل المدافعة عن مدرسة النمط الأوسط أو حتى عن غيرها من المدارس الأبوية فقط.

ومفهوم المدارس الأبوية هي: المدارس القائمة على حُبِّ آل البيت باعتدال، والتزام المذهبية الإسلامية القائمة على السلامة، والأخذ بمذهب الزهد والذوق المعروف بالتصوف، وهو ثمرة من ثمرات عِلْم الإحسان، من غير إفراط ولا تفريط.

وعند التدقيق الواعي فيمن يضع مثل هذه الأسئلة ويثيرها في الواقع الغثائي المشتت إنما يشير النظر الواعي إليه وإلى أمثاله بالجهل وعدم دراسة الأمور دراسة إسلامية واعية، وما أصابنا البلاء والاجتراء إلا جهل الحاملين ألوية الديانة

فأهل النمط الأوسط جزئية لا تتجزأ من الإسلام ذاته، وهل يَسْلم المسلمون بعمومهم من الوقوع فُرادى وجماعات أو مذاهب أو رؤى في الجنوح والإفراط والتفريط؟ والإجابة: لا.

إذن فالجميع يعاني المشكلة، ولكن من الذي يبحث عن حلها؟ فالبحث عن الحل أول أسباب العلاج، ولكن الملاحظ والمقرر في حياة الأمة أن كثيراً من أطراف الحركة لا تبحث عن علاج لا في نفسها ولا في غيرها، وإنما تُعمِّق وتثير الأزمات فتثار كوامن الجماعات وتشتت الأذهان في ملاحقة التناقضات والمتناقضات لتتفجر أوضاع المسلمين من داخلها وبدون حل ولا تشخيص ولا معالجة، وللأسف.

ومع هذا وذاك فمدرسة النمط الأوسط - كما أطلقنا عليها تبعاً لفهم النص الشرعي - قد تعرضت من خلال سلوك الأتباع وفهم بعض جزئيات العلم والديانة إلى الجنوح والإفراط والتفريط، والإفراط والتفريط ميل عن الحق وليس استعاضة عنه، ومن الأمانة أن نجعل دعوتنا لإصلاح مدرسة النمط الأوسط أو غيرها دعوة إعادة وعودة إلى الاعتدال، وكفى.

إن الإفراط والتفريط الذي أثبتناه في سلوك أتباع مدرسة النمط الأوسط هو ذاته موجود وباندفاع في المدارس المعارضة لها، ومن نماذجه إصدار الأحكام

الجزاف على المذهب أو الجماعة بالشِّرك أو البدعة أو غيرها من مسميات الإفراط، وفي الأحكام أو التفريط عند تجريدها الكلي عن الخير والأمانة والسلامة والنجاة في الدارين.

إن قضيتنا واحدة، وعدونا واحد، ومصيرنا كذلك، وإشكالنا جميعاً هو تبنّينا سياسة التفريق للواحد، والقرآن يعالج هذه الظاهرة لدى الجميع﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١٥٩] ، وعلى هذا المعنى الربّاني يجب أن نحصر القضية ذاتها في ثلاثة أبعاد: اعتدال، إفراط، وتفريط.

وعلى الجميع العمل الواعي لربط المجموعات والمذاهب والنحل والرؤى بالاعتدال، ومجانبة الإفراط والتفريط، وإذا ما وقع الأتباع في شيء من ذلك لسبب ما أو فهم ما، فالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن كفيلةٌ بإيراد الحق من طرفي الجنوح.

وهذا أساس التشخيص المؤدي إلى سلامة المعالجة للذين يفهمون المقصود والمراد من هذا الأمر، وهم المرجوون في إعادة ترتيب الوعي والإدراك من كل وجهة أو جماعة.

وأما المنتفعون والمندفعون فهم وقود الفتن، وهم أسباب اتساع الخرق في كل زمان ومكان، وهم قوم كُثُر أصابهم داء الأمم: البغضاء والحسد[1].

وفلسفة مفهومي البغضاء والحسد من الوجهة الشرعية تشير إلى علتين:

الأولى: طبعٌ مريضٌ مصابٌ بداء الأنا والأنانية.

الثانية: استتباعٌ لرؤى شياطينة اخترقت الأمم عبر التاريخ، فكان داؤها سبباً في إهلاكها وإهلاك غيرها (داء الأنوية).

والسلامة من هذا الداء متابعة نص الحديث النبوي وما يحمله من معالجة «ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[2] .

ويخرج عن هذا التعليل أنموذجان:

١- رجل قرار وسُلطة تعسف الحق وتسلط به.

٢- رجل علم تسيس بسياسة دينية تمنحه جاهاً ومكانة ومقاماً على حساب غيره.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٤/ ٧٤) من حديث الزبير بن العوام مرفوعاً: «دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء».

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٤٢) وابن ماجه في سننه (١/ ٢٦) وأحمد في المسند (٢/ ٣٩١) من حديث أبي هريرة.

وهل يختلف اثنان أن منهج النمط الوسط هو إفشاء السلام في الشعوب، وأن منهج النمط الأوسط - من بقية السيف وسادة الصُلح الواعي ومن غيرهم - هو عين ما دعا إليه رسول الله ﷺ وما دلَّ عليه في الحديث؟

إنَّ التعقيدات المتراكمة في عقول الأتباع المخدوعين في المدارس الإسلامية المتنوعة - سواءً كانت أبوية تقليدية أم حديثة توليفية - قد أصابت الجميع بداء الخوف وعقدة القلق من الآخر، حتى لم يَعُد لدى الفرد أو الجماعة مساحة تتسع للآخر أو حتى القبول به، ما زاد الأمر تعقيداً وإشكالاً، وأعطى الشيطان قدرة أوسع على احتناك الجماعات ضد بعضهم البعض.

إن أمامنا عدة مسائل يضعها الآخرون من المعارضين للمدارس الأبوية، وهم - كما سبق ذكرهم - عدة مدارس:

١- مدارس إسلامية أو إعلامية ارتبطت بالحركة السياسية علمانية وعلمنية وعولمية.

٢- مدارس إسلامية أو إعلامية حزبية وفئوية إقليمية.

٣- مدارس إسلامية مذهبية طائفية مسيّسة.

٤- مدارس توليفية حكومية وشبه حكومية.

٥- مدارس إلحادية عالمية وإقليمية.

وكل مدرسة من هذه المدارس تعمل على إشاعة النـواقض والنـواقص عـن المدارس الأبوية حيناً في العلم وحيناً في الحُكْم وحيناً في العادات والتقاليد، وهي - أي: هذه المدارس بعمومها - لا تحمل الحل المناسب، ولا تشارك في تكوينه.

نعم إن كثيراً من هذه المدارس تعمل على إنجاح برامج معينة وخطط براجية معدة، وتكرِّس الجهود في تنفيذها والاعتداد بها، والحديث عنها باعتبارها جـزءاً من منجزاتها، وهذا لا يعنينا في موضوعنا هـذا، بـل ربـما كـان يعنـي أصـحاب المدارس أنفسهم عند ذِكْرِهم محاسنهم والتشهير بغيرهم.

لقد قرأت يوماً ما صحيفة ثقافية وقد نشرت تحقيقاً صحفياً عن مناسبة مـن المناسبات الأبوية، ولم تزد شيئاً عما يفعله أمثالها من حملة الصور والأقـلام لنـشر الجانب السيئ الممقوت عن الأبوية التقليدية.

والسيء الممقوت هو رصد كل ما من شأنه الإثارة للآخرين، وتحليله تحلـيلاً يتناسب مع الغرض ذاته، حتى صار القارئ لهذا الموضوع يصدر حكمه البديهي على هذه المناسبة ومن فيها بالشِّرك والكُفر.

وهذه المسألة مـن مـسلَّمات المـدارس التوليفيـة المعـاصرة، كـما أن المتَّهَمـة بالجنوح والشِّرك مدرسة معلومة أيضاً، ولكني بقـراءتي للموضـوع مـن جهـة،

وقـراءتي للمرحلـة ـ ومـستثمريها مـن جهـة أخـرى ـ تميَّـز لي الـدافع والهـدف والوسيلة والغاية، فكان ما كان.

أجريت اتـصالاتي بالجهـات المـسؤولة عـن المناسـبة وطلبـت تـسليم إدارة المناسبة لنا كجهة علمية بحثية تنتمي للمدرسة الأبوية، وبعد طول معارضة تمت الموافقة وبدأ العلاج.

ومن العجيب أن هـذه المنـابر الإعلاميـة التـي عُنِيَـتْ بـالتحريش وكـشف العيوب صار لا يعنيها بعد ذلك نشر أسـاليب الـسلامة ومعالجـة الجنـوح، ولا عجب، وبينما نحن في خِضَم إعادة ترتيب المناسبات الأبوية وإصلاح ما أفسدته الأزمنة وتراكماتها تشرّفنا بزيارة مندوبين لأحد القنوات العربية الكبرى، وتحرَّك المندوبون لرصد وتصوير العديد من المـشاهد الـسلبية والإيجابيـة ثـم قـدمت لي مجموعة من الأسئلة حـول المناسـبة، وحَرِصْـتُ كـلَّ الحِـرْص عـلى أنْ أوظِّـف الإعلام في خدمة الإسلام وإعادة الثقة بين المصلين، وشَرَحْتُ للسائلِ أنَّ ظاهرة السلبيات في المناسبة إنـما تعكـس سـلبيات في الواقـع كلـه، فـالإدارة والـوزارة والتربية والتعليم والثقافة وغيرها تعيش عشرات السلبيات والمخالفات، وأيضاً لابد أن يكون المسجد والمناسبة خليطاً من هذا الواقـع المتنـاقض، ولكـن المهـم والأهم تركيـز الإعـلام عـلى وسـائل التحـديث والإصـلاح والمعالجـة كبدايـة

مسؤولية داخل الواقع التقليدي لإعادة الترتيب الشرعي للمناسبات وما يدور فيها من ملابسات.

ولمَّا عَرَضَت القناة هذا الأمر على المجتمع الإنساني، وشاهدت العَرْض والتعليق تبين لي وبالتأكيد أنَّ هؤلاء لا يبحثون عن حلول للشعوب، وإنما يبحثون عن إثارة تُسْهِم في خدمة الشيطان، وامتداد صراع الأمة حول متناقضاتها، وكل إناءٍ بالذي فيه ينضح...

وقد يكون المندوبون أكثر فهماً للواقع لِما رأوه وسمعوه وفهموه، ولكنَّ الجهات الحاملة قرار التسييس قد تعكس الأمر وفق ما رُسِمَ لها وخُطِّط للمرحلة وقراءة مَنْ فيها وما فيها.

إننا نصرُّ كل الإصرار على أن يَفْهم كافة أتباع النمط الأوسط من المنتمين لـ(بقية السيف وسادة الصُلح ومَنْ تَبِعَهُم بإحسان) أنَّ لنا وجهة نظر واعية، وأننا لا نرغب بالخلاف ولا الاختلاف، بل نرغب سلامة التشخيص لتَسْلم المعالجة من الخلط والخبط، فهل في مطلبنا من عيب أو احتكار أو مصادرة لآراء الآخرين؟

لقد اعترفنا بالخلل، ونعمل على إصلاحه، وكُلّنا يُسْهِم في بناء المرحلة وسلامة استقرارها، لا للاستثمار المادي وإنما لنداء الواجب الشرعي، فهل كل المستثمرين على هذا النمط؟

إن المشكلة في أولئك الذين يفلسفون الخطأ ولا يعالجونه أنَّهم يستغلون الفلسفة والتعليل للعيش على حساب الآخرين، ويدفعون بالواقع وبضحاياهم فيه لتوسيع دوائر تُهَم الشَّك والارتياب والنقض والقبض، وباسم الأطهار من آل البيت عند البعض، وباسم الإسلام ومبادئه عند آخرين، لتزداد مساحة الحقد بين المسلم والمسلم، وتتفكك الأواصر، ويعيش المخادع والأفّاك والمستثمر حَكَماً على حساب المحكوم المخدوع المستغفل مقابل عَرَض من الدنيا قليل، ثم يتحقق الهدم، وتصطبغ الأيدي بالدم، ويتكئ الشيطان على أريكته معجباً بالأبطال الذين يرحلون أو يُرَحَّلون من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة من داخل الفِتَن المضلَّة والمجتمعات المُستذلَّة.

المساهمة في رفع حُجُب الشك المحيطة بالنمط الأوسط

مع كل فتنة تطرأ في الواقع العربي والإسلامي تتحرك العيون والألسنة والشاشات عبر الصحف والمجلات والجرائد وفي المجالس والمناسبات لإعادة الحديث عن التاريخ ومشاكله، ونبش جراح الماضي، وما ترتب على ذلك من ولاء وبراء ومواقف ونزاع وصراخ وهراء، وكأن الحياة تقاس دائماً بالأحداث والمآسي، وبها ومنها تُتخذ المواقف والعلاقات، وقد طغى هذا الفهم على عقول الكثيرين من الأمة، حتى صار لُغَة التفاهم، وأسلوب التخاطب، ومغمز العلاقات، ومطية الحاقدين والمستثمرين للظروف.

وربما وصل الأمر إلى تأثّر حَمَلة القرار بِمِثْل هذه الأغلوطات، فيبدأ الشك وسوء الاحتمالات، وقد يعمل العديد من أهل الأغراض والأمراض على تعتيم الرؤية ونقل المعلومات بصورة تثير حملة القرار على المنتمين تاريخياً إلى المدارس الأبوية في الإسلام وخاصة ممن له انتماء لآل البيت بالنسب أو بالارتباط، ويخلطون في هذه المسألة بين أهل البيت دعاة النمط الأوسط وبين مدارس الإفراط والتفريط المتَّسِمَة بِسِمَة حُبِّ آل البيت أو موالاتهم.

ويبدو أن البغض الصريح أو البغض المبطن شنشنة في بعض النفوس لا مخرج منها ولا علاج لها، ومثل هؤلاء لا ينفع معهم شيء من التلميح، ولا

إيضاح المواقف من الإفراط أو التفريط أو رفض الاعتداد بالنسيب والحسب، فتلك علل تقابلها علل طبعية مثلها، وقد استشرى داء الفريقين وغَلَب على محيط العلاقة بين الفئات الاجتماعية، وظهرت سلبياته وتفشَّت أوبئته وتبعاته.

والذي نحن بصدده محاولة لإعادة الأمر إلى أصوله من الديانة الشرعية لمن كان يرغب في الالتزام بالديانة، أما من لا يرغب في ربط الولاء بالديانة فنربط الأمر له بالمصلحة الاجتماعية المشتركة، فالجميع لهم حق المواطنة، وكما اتسعت المرحلة سياسياً واقتصادياً وإعلامياً لكافة القوى الإنسانية وما يسمى بالدول الصديقة - كما نرى ونشاهد - وصار للأمة المعاصرة معها قواسم مشتركة قائمة على المصالح وتبادل المنافع فمن الضرورة بمكان أن تتسع لمن هم في دائرتها الإسلامية والدينية والشرعية، وَلَو مِنْ بعض الوجوه.

وقد لاحظنا في الآونة الأخيرة اتساع الحوار السياسي وطرح التنازلات خلف التنازلات لإرضاء العدو المشترك - العدو الصهيوني الغاصب المحتل - كي نحقق معه — من خلال هذه التنازلات - قاسماً مشتركاً في العيش بسلام ضمن ضوابط وأطر وضعية وقوانين توليفية لاستثمار المرحلة وسلامة التعايش فيها، ولم يعد الأمر في هذا التنازل سراً ولا خيانة ولا مخالفة للديانة والتدين من وجهة نظر الجميع، وخاصة رموز القراءات والولاءات، فلماذا لا تتسع صدورنا

كمسلمين لبعضنا البعض؟ ولماذا لا تتسع قواميسنا الأدبية لمن نختلف معهم في الفكر أو الرؤية أو المذهب، ومن داخل أدب الإسلام نفسه، بحيث لا نحتاج إلى تنازلات ولا إلى خيانة ولا مجرد تعمية أبصار وبصائر لكسب الوقت، بل إلى شجاعة في الالتزام الشرعي لقواسم الديانة المشتركة؟.

ربما احتاج الأمر إلى صراحة أكثر وإلى بيان أوسع حتى نكتشف العلة ونبدأ في معالجتها، ولكن من الذي يتقبل الصراحة؟ ومن الذي يرتاح إلى البيان؟

إن مشكلة البُغْض المركّب لدى ضحايا المرحلة ضد أتباع المدرسة الأبوية خاصةً ممن ينتسبون إلى آل البيت لا يعدو كونه جهلاً بالحقائق، وخصوصاً فيما يخص النمط الأوسط من دعاة الوسطية الشرعية والاعتدال الواعي، فالإشكال ليس بعميق ولا موجباً للعداوة بين شرائح المجتمع الواحد.

فالجميع في حاجة إلى قراءة الحياة الإسلامية وعلاقات المسلمين فيها من الواقع الشرعي لا من تراكمات المراحل وحوادث التحولات، كما أن من مهماتنا ونحن نرتبط معاً بالكتاب والسُنَّة أن نزيل الكثير من الإفراط والتفريط المؤدي إلى شبهات الفساد والإفساد في الديانة والتدين لإكمال الصورة وإيضاحها.

فالنمط الأوسط - كمدرسة وكأتباع - يلزمهم إعادة النظر في علاقتهم بالشعوب وشرائحهم الاجتماعية وعلاقتهم بجملة المفاهيم التي أثارت

الإشكال في الواقع الاجتماعي، وتصحيح الخطأ الذي تنفذ منه القوى المضادة للمنهج الأبوي الشرعي.

فالخطأ هو الخطأ، ومن لم يسع إلى تصحيح أخطائه وإعادة سلامة علاقته بغيره على الوجه السليم فلن يستطيع أن يصنع التفاؤل في حياته ولا في حياة غيره، وكما ذكرنا سلفاً أن مدرسة النمط الأوسط تعرضت للتراكم السلبي عبر المراحل ولم تجد من يبث فيها روح التجديد وسلامة الإعادة، بل وجدت من فعل الصراع بينها وبين المتربصين بها إلى اليوم.

ولأنها – أي مدرسة النمط الأوسط – ليس لها في اقتسام مصالح القرار موقع معين لزهدها فيه؛ فقد استعدى عليها علماء السلطان ونازعوا رجالها وأتباعها بما هو معلوم في عصرنا من التهم والرؤى والمفاهيم المحبوكة خلال الهجمة الغثائية العالمية على كافة مواريث المرحلة الإسلامية الأبوية القديمة، ولم يميزوا في هذه الهجمة السياسية بين السلبيات التراكمية وعوامل إصلاحها وبين إيجابيات المدارس الأبوية وكيفية الاستفادة من ثوابتها.

لقد خرجت المدرسة الإسلامية الحديثة ذات الارتباط المباشر بالوضع السياسي الجديد المرافق لمرحلة الانتقال من عصر الخلافة الإسلامية إلى عصر القوميات بمفاهيم سياسية باترة للمدرسة الأبوية ومدمرة لكافة تركيباتها

الأبوية الشرعية في كافة المستويات الثلاثة: المذهبية، التصوف، وحب آل البيت وإقامة حقوقهم الشرعية.

فالمذهبية الإسلامية بعمومها في مرحلة الغثاء صارت ورقة في مهب الرياح، كما صار التصوف بعمومه ومن غير تمييز قادحاً أساسياً لمن ارتبط به في برامج التوحيد السياسي، ومثل ذلك قضية علاقة الأمة بآل البيت وما لهم من حقوق كخُمُس الخُمُس، واحترامهم وتقديمهم ومشاورتهم، ومحبتهم لأجل الله ورسوله، فكل هذه المميزات توقف العمل بها، بل وصارت مغمزاً سياسياً وتهمة عقدية في لغة حملة قراري الحُكم والعِلم.

وزاد الطين بلة تركيز المدرسة السياسية على كافة المظاهر التقليدية ذات العلاقة بمدرسة آل البيت وشرف انتماءاتهم كالقبور والموالد والاجتماعات التقليدية، وكل ما من شأنه إظهار علماء المذهبية والصوفية وآل البيت، بل وحتى مدارسهم الشرعية النافعة لعموم المسلمين.

وقد ترافق هذا التظافر السلبي في بلاد المسلمين بعيد امتداد الاستعمار السياسي العالمي الذي كان له الحظ الأوفر في إعادة ترتيب الخريطة الإسلامية والعربية ثم إعادة ترتيب الأنظمة ثم إعادة ترتيب المذاهب الفاعلة في الواقع المغلوب، حتى صار المذهب الأبوي التقليدي في بعض البلاد مُزاحماً ومُغالباً

بالمنهجيات الحديثة ذات الارتباط بالسياسات الاستعمارية، وفي بعض البلاد مقتلعاً كلياً بإيجاد البديل المعارض للمدرسة الأبوية الشرعية المذمومة بالمدرسة الأنوية الوضعية المدعومة.

ولم تكد الأمة العربية والإسلامية تتنفس الصعداء بعد التحولات السياسية والجغرافية والاجتماعية التي تحققت لمستثمري الحروب العالمية باقتسام تركة الرجل المريض حتى بدأ في الأفق المُعْتِم تحوّل المجتمع العربي والإسلامي من وجوه عدة إلى بؤر جديدة وصراعات مديدة، أولها الحكم والعلم، وبعدها الاقتصاد والإعلام والعلاقات الاجتماعية، وبمقدار ما اكتسبته الشعوب من آثار الحضارة المادية على يد المستعمرين والمستثمرين فقد فقدت ثوابتها التاريخية بالمدرسة الأبوية الشرعية، وتحولت هذه المدرسة التقليدية إلى (عُقدة شِرك وبدعة) لدى بعض الشعوب والمثقفين ولدى البعض الآخر (عُقدة تخلُّف وتحجُّر وعِرْقية.. وهكذا تتحدث مخرجات الثقافة والتعليم والتربية المعاصرة الرسمية وشبه الرسمية.

ولم تستطع مدرسة المذهبية والتصوف وآل البيت أن تحكم المدافعة ولا المرافعة أمام الطوفان العارم، بل التزمت الصمت وأعادت ترتيب واقعها الخاص في بعض زوايا الأرض مستعينة بالله وبما هيأه الله لها من حِرْص الأوفياء

وصمود الصالحين من العلماء، مع أن بعض العلماء قد حاولوا الدفاع النسبي عن المنهج وما قيل فيه، ولكن بصورة محدودة ومتباعدة، حيث لا يدعمهم قرار سياسي ولا قدرات مادية وإعلامية مناسبة، وبعضهم ذاب في بوتقات الوظائف والأعمال.

ولا زالت هذه المدرسة تعاني من هذه الهجمات والتهمات والمنازعات وبث الإشاعات إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

لقد وَضَعْتُ هنا أمانة العلم الذي أعلمه بِصَرف النظر عما سيحدثه هذا الطرح من أثر لدى المستغفلين من جهة، والمستثمرين وأذناب المستعمرين من جهة أخرى، ومع إدراكي التام أن السباحة ضد التيار موتٌ محقق، ولكني أَرْجو مِنَ الله العونَ والسلامة، فهو المالك للأمر، كما أرجو من المخدوعين والمغرّر بهم وجَهَلَة المراحل وضحايا الإفك المقنن أن يتعرفوا على مواقفهم من السلامة في الدارين.

فالحديث هنا عن النمط الأوسط لا ينازع رجال سلطة على سلطتهم، ولا رجال حكم على دوائر حكمهم، ولا على ذي مصلحة ذات اعتبار في هذا العالم على ترك مصلحته، وإنما هو كشف لحقيقة حُجِبَت عنها الشعوب، وارتكس في منازعتها حملة القرار بإدراك وبغير إدراك، بل وقع فيها الأغرار من طرفي

الإفراط والتفريط في المدرسة الأبوية ذاتها، وفات على الجميع بذلك خير كثير ومكسب كبير، ولم تكن البدائل في المستوى المناسب، بل لم تكن تمثل الأمانة الشرعية في خدمة الواجب، ولعل هذا جزء من مسيرة القضاء والقدر، فلا اعتراض على أمر الله ومراد الله، وربما يكون هذا سوء فهم عندنا لمجريات العلم بسير القضاء والقدر، فكان الشيطان هو المنفّذ والمستثمر، وكانت الشعوب وَحَمَلَة القرار فيها هُمُ الضحايا وهم المستغفلون في خدمة المشروع الأنوي العالمي.

هل يُعادي أهل النمط الأوسط أحداً في المراحل؟

أهل النمط الأوسط لا يحملون لأحد في هذا العالم عداوة تفضي إلى ما تفضي إليه عداوة الأطراف المتنازعة، سواء كان هذا المخالف مُسلماً داخل دائرة الإسلام، أو كان كافراً لم يدرك حقائق الديانات أو جاهلاً بحقائقها الشرعية، فالأصل في العلاقة لدى حملة المنهج الأوسط إعذار الجاهل وتنبيه الغافل والصفح عند المقدرة، ورفض كسب عداوة الآخرين، إذن فما الذي يدور في ساحة الأمة من العِداء؟

الذي يدور في ساحة الأمة من العداء هو نزغات وساوس الشياطين، وطباع ونفوس الآدميين المستخفين بأمر الديانة، والغارقين وما اختلفت عليه البشرية من مصالح الدنيا ورغباتها في الحياة والسلطة والامتلاك والتعيين.

وأهل النمط الأوسط قد تخلوا عن هذه الأسباب ورموا بها في لُجَّة الأمواج المتلاطمة، ونظروا إلى حِكْمة الله في سرِّ الدَّفْعِ والنَّفْعِ والوتر والشفع، وأقاموا واجبهم الشرعي مع الجميع دون الحاجة للتدني والسقوط في معركة العَرْض والطَّلَب، والواجب الشرعي هو أساس حقيقة المعاملات الدينية التي أراد الله بها صلاح الشعوب ونزع فتيل الشر عن صالحيهم وعن الموفقين من الناس الذين قال الله فيهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام:٩٠].

والمعلوم أن الاهتداء لا يُقْصَد به متعلقات العبادة والأحكام فقط، فهذه تختلف من عَهْدٍ إلى عهد ومن مرحلة رسالة إلى أخرى، وفق الوحي السماوي لكل أمة، وإنما تعني الآية فيما نعتقد إن شاء الله زيادة على المعنى الأساس أن المواقف هي الآداب والأخلاق التي تعتبر قاسماً مشتركاً بين الشعوب والأمم على اختلاف دياناتها وشرائعها.

وأهل النمط الأوسط يعلمون يقيناً أن الحياة دار تنافس، وقد جُبِلَت الطباع على ذلك، وأن المخرج من هذا الداء الزُّهد في وسائل المنافسة، والحصول على ما تيسَّر من الحاجة الضرورية لإقامة أسباب الحياة بشروطها المعلومة، وبمقدار فقه الشعوب لهذه الجزئية تظل العلاقة بين الأمة إيجابية ومثمرة، وشرطها أن ينشأ عليها الأبناء والبنات منذ نعومة الأظفار، وقد تحقق مثل هذا لأئمة النمط الأوسط في سابق التاريخ الإسلامي، وكانت هذه التربية سبباً رئيسياً في السلامة التي نَعِمَ بها أهل النمط الأوسط في أشد مراحل التنافس وبمخالفتها وتجاوزها تجرَّع الآخرون الإبادة والحصار[1] والأذى والمُلاحقة مِنْ منافسيهم على المطامح والسلطان.

(١) لما روى البخاري ومسلم وغيرهما لما قدم مال البحرين قال: «فسمعت الأنصار بقدومه فوافته صلاة الصبح مع رسول الله ﷺ، فلما انصرف تعرضوا له فتبسم حين

وكأني بهذه المواقف الخاصة لـن تجـد الآذان الـصاغية ولا الاسـتعداد التـام للقبول عند الكثير، ولأن الأمر كذلك، فـإن هـذا لا يمنعنـا مـن إبـراز الحقيقـة ناصعة ليدرك الأجيال نماذج هذا النمط المتفرد ودوره السليم في تاريخ الوسطية الشرعية والاعتدال الواعي، وفشل المتأخرين منا جميعـاً عـن الوصـول إلى هـذا المستوى الشرعي، والتأخر عن الالتزام به، والتحلي بفضائله، وربما من كـان منـا من ينكره ويأباه.

وأصل الإنكار - إن وُجِد - إنما يشير إلى انعدام التربية الموصلة إلى مـستوى النمط الأوسط الأوائل، فالتربية والتعليم والإعلام والثقافة في عصرنا إنما تعتني بغير ما يعتني به أئمة النمط الأوسط، ولذلك لابد أن تأتي مخرجاتها مخالفـة تمامـاً لمخرجات الأئمة والعلماء الأكابر من هذا النموذج.

رآهم وقال أظنكم سمعتم بقدوم أبي عبيدة وأنه جاء بشيء. قالوا: أجـل يـا رسـول الله. قال: فأبشروا وأملوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخـشى علـيكم ولكـن أخـشى أن تبـسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كانت قـبلكم فتنافـسوها كـما تنافـسوها وتلهـيكم كـما ألهـتهم» [أخرجـه البخـاري في صـحيحه (٦/ ٣١٦، ٣١٧ فـتح) ومـسلم في صـحيحه (٢/ ٥٨٣) والترمـذي في سـننه (٤/ ٥٦) وابـن ماجـه في سـننه (٢/ ١٣٢٤) وأحمـد في المسند (٤/ ١٣٧) من حديث عمرو بن عوف.

بل وربما كان المعاصر من مخالفي أهل هذا النمط لا يعنيه أمر الأخلاق والتربية، وإنما يعنيه تحجيم ما قد صورته مدارس الغثاء عن النمط الأوسط ومن أفرط في حبهم أو التعلق بهم أحياء وأمواتاً، حيث ارتفعت درجة حرارة القضية لتَخْرج من نمط الاقتداء والاهتداء إلى درجة القلق على العقيدة وسلامة الديانة، ولكل وجهة هو مولّيها، وأنّى لنا بعد هذه الحرارة المرتفعة أن نقنع معاصراً بسلامة منهج النمط الأوسط أو سلامة الاقتداء ببقية السيف وسادة الصُلح الواعي.

ولكنا – كما أشرنا من قبل – في حاجة إلى توثيق الحقيقة وإثباتها بلغة رجالها وإن قلَّ المرتبطون بها، وقد ورد عن الإمام علي رضي الله عنه قوله: «لا تستوحشوا من طريق الحقِّ لِقِلَّة سالكيه».

فإثبات مواقف رجال النمط الأوسط وتذكير الشعوب به عاملٌ هام مِنْ عوامل غرس التوازن أمام نماذج الإفراط والتفريط ودعاة التسييس لمفهوم الوسطية الشرعية والاعتدال الواعي في المراحل المتقلبة.

إن البحث عن هذا النموذج من الخلق في عصر الإعلام ومخرجاته أمرٌ صعب جداً، ولكن ومع هذا الأمر فإن الله قد ضمن الحفظ لدينه، وللحفظ نماذج، وقد يحفظ نموذج الدين في صورته الإعلامية برجال الإعلام، وفي

صورته السياسية برجال السياسة، وهلم جراً، وقد قالﷺ: «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»(١) ، ولكنها صورة، وأما الحقيقة فلابد أن يكون لها نماذج من نمط آخر.

وحسب علمنا المحدود أن هذا النمط هم (أهل الإحسان) ومن صفاتهم عدم توريث العداوة، والإحسان ركن من أركان الدين، وممتزج كل الامتزاج بالركنين السابقين له: الإسلام والإيمان، وبالثلاثة يتكون النمط الراقي في مراتب السلوك، وهذا النمط السلوكي ينظر إلى الحياة وما فيها بنور الله، ومِنْ نورِ الله في النظر إلى الحياة: تقرير أمر القضاء والقدر والسوابق والأزل وفق مراد الله، ومِنْ غير اعتراضٍ أو تطاول بدون تكلُّفٍ أو تشوق.

ومتى ما صَعُب على المرء المعاصر منا فهم هذه الأمور أو اشتبك عليه تحليلها فما عليه إلا التصديق بوجودها في أهلها وكفى.

وسلم لأهل الله في كل مشكل ... لديك لديهم واضح بالأدلة

إننا هنا نضع أمانة المعرفة لمن كان من أهلها وخاصة أحفاد وأسباط مدرسة النمط الأوسط، وهم اليوم قومٌ كُثُر خاضوا تجربة الحياة المعاصرة بأساليبها،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ٢٢٠ فتح) ومسلم في صحيحه (١/ ٥٨) والدارمي في الجامع (٢/ ٣١٤) وأحمد في المسند (٢/ ٣٠٩) من حديث أبي هريرة.

وأعطوا الواقع الاجتماعي جُلَّ جهودهم العقلية والعلمية والعملية، ولكنهم ظلموا من جانب المعرفة العادلة لواقع أسلافهم وآبائهم من النمط الأوسط دعاة السلام والمحبة والرحمة، إذ إن كثيراً من مخرجات المعرفة المعاصرة لا تولي بالاً ولا أهمية بقضية الذوات الإسلامية الأبوية، إما لأنهم من آل البيت النبوي، وإما لأن هناك الكثير من حملة الأقلام والإعلام من لا يرغبون في التناول لهذا الاتجاه الأبوي لما يثيره من حساسيات بين الناس، أو هم هكذا يتصورون ويتوهمون، إضافة إلى أن مسمى آل البيت في مرحلتنا المعاصرة اتخذ شكلاً سياسياً معيناً، وكَثُر اللغط حول المسمى ومن ينتمي إليه، ورافق هذا اللغط تخوف شديد لدى المتنافسين على الحطام والدنيا ومراتبها أن تعاد القضايا المسكوت عنه للبحث عن الجدارة والأحقية بالسلطان والحكم وما شابه ذلك، وخاصة أن من المنتمين لآل البيت من يلوِّح بذلك ويتحدث ويعبر في وسائل الإعلام عن مثل هذا الخطاب الخطير، وَيَجِد له في الواقع المحلي والعالمي من يؤازرة ويناصره.

والحقيقة أنَّ مدرسة النمط الأوسط ممن فيها من آل البيت – وهم قومٌ كُثُر – لا يولون لقضية الحكم والسلطان بالاً ولا أهمية، بل لا يعتبرون الحديث عنه ولا التناول لقضاياه مشرفاً لهم ولمدارسهم، وهذه وجهة نظر.

ومن هذه الوجهة الواعية ننطلق نحن ونعيد مفهوم البديل الأنسب، وهو تناول الحديث عن بناء الشعوب، والاعتناء التربوي والعلمي بالأجيال، وهذا ما سَلَكَهُ الأوَّلون جميعاً مِنْ أتباعِ هذه المدرسة، ولا نعارض غيرنا ممن ينتمي إلى بقية السيف وسادة الصُلح الواعي في رأيه المعاكس، فلكلٍّ وجهة نظره.

وقد تهيأ لنا إضافة أمر مهم في مجال الاهتمام ببناء الشعوب وتربية الأجيال زيادة على ما قد اعتنى به رجال مدرسة النمط الأوسط، وهو دراسة فقه التحولات وسُنَن المواقف على ضوء إعادة القراءة الواعية لأركان الدين.

ومع أن هذه القراءة بهذه الرؤية لم تسبق لأحد من قبل إلا أنها جزء لا يتجزأ من عِلْم الأئمة الصدور، وبه عرفنا شرف مدرسة النمط الأوسط بين المدارس الإسلامية، وبه أيضاً نعيد قراءة التاريخ والسيرة على أساس الربط الواعي بين مفهومي التاريخ والديانة بعد أن انفصم الربط بينهما على أيدي علماء المدرسة الحديثة وبعض علماء المدرسة الأبوية القائمة على قراءة الأركان الثلاثة للدين فقط.

لقد صار واجباً على كافة الراغبين في بناء منهج السلامة في الشعوب والمتطلعين إلى الاتباع الواعي لأئمة الدين الصدور – بدءاً بالمتبوع الأعظم ﷺ، ونهاية بالعلماء الوارثين الأثبات – أن يقرؤوا فقه التحولات وسنن المواقف وما

يتعلق بهما من إيضاحات ومعلومات ليدفعوا بعجلة السلامة الشرعي نحو الحركة بعد أن أوقفها دعاة السلام النفعي ودعاة المصالح والتنازلات وفقهاء المغالطات والمبررات.

وبهذا الفقه لا بغيره ستُعاد قراءة الحركة الفكرية والسياسية والعلمية والتربوية والاقتصادية والإعلامية حتى تستقر في مجراها الطبيعي من تفسير الظواهر ومسببات التحول في الأمم والشعوب سواء قَبِلَهَا الآخرون أم لم يقبلوها.

قال تعالى في فقه الكلمة من هذا النمط: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم:٢٤-٢٥].

وقال سبحانه وتعالى في فقه الكلمة الخبيثة التي فَصَلَت بين الدِّينِ والدولة، وبين الديانة والتاريخ، وبين وبين... تحت شعار (فرِّق تَسُد)، وبين الفريقين مِنْ حَمَلَةِ الكلمة الطيبة ونَشْرِ فقهها في ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم:٢٦]، وبين الكلمة الخبيثة وَحَمَلَةِ نَشْرِها في العالم، يُقَرِّر الله موقع الفريقين من الآدمية ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ

ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ [إبراهيم:٢٧].

الركن الرابع وعلاقته بمنهج النمط الأوسط

كانت مواقف أئمة رجال النمط الأوسط نابعة من عمق قراءتهم الشرعية للركن الرابع من أركان الدين، وهو علامات الساعة[1] وعلامات الساعة محورٌ هام في ثقافة المسلم، وأساس معرفي متميز، ولكنها تحتاج عند القراءة إلى استيعاب جوامع الكَلِم التي يتحدث عنها مَنْ لا ينطق عن الهوى، فالجوامع جمعٌ لجامِعٍ، والكَلِم جمعٌ لكلمات، ومعنى أنَّ هذا العِلْم يعتمد على الإشارة وفكّ رموز الكلمات الجامعة.

---

(١) وقد تكلم العلامة الصاوي في حاشيته على شرح الخريدة البهية عن وجوب العلم بعلامات الساعة وأنه يشابه العلم الحاصل بالضرورة، حيث قال: «واعلم أن التصديق بما ذكر هو الإيمان الشرعي لأن الإيمان لغة هو مطلق التصديق، وشرعاً: هو تصديق النبيﷺ بالقلب في جميع ما علم مجيئه به من الدين بالضرورة أي فيما اشتهر به أهل الإسلام، وصار العلم به يشابه العلم الحاصل بالضرورة» اهـ حاشية العلامة الصاوي على شرح الخريدة، لأبي البركات.

قال ﷺ: «بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين»[1]، وقال الإمام علي رضي الله عنه: «سلوني قبل أن تفقدوني، فوالله لا تسألوني عن فئة خرجت تقاتل مائة أو تهدي مائة إلا أنبأتكم بسائقها وقائدها وناعقها ما بينكم وبين قيام الساعة»[2] وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «ما أنا إلى طريق من طرقكم بأهدى مني بكل فتنة هي كائنة بناعقها وقائدها إلى يوم القيامة»[3].

وهناك الأحاديث والآيات الكثيرة الدالة على أهمية هذا العلم الخاص بالساعة وعلاماتها، فعن سعد بن وقاص رضي الله عنه قال: «تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام:٦٥] فقال رسول الله ﷺ: أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد»[4]، وفي هذا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٣٤٤) وابن ماجه في سننه (١/ ١٧) من حديث جابر بن عبد الله، وأخرجه البخاري في صحيحه (١١/ ٤٢٢) ومسلم في صحيحه (٢/ ٥٨١) من حديث سهل بن سعد.

(٢) عن زر بن حبيش ص٢٠ كتاب الفتن لنعيم بن حماد، ص١.

(٣)حديث ٢٥ ص١٦ الفتن نعيم بن حماد وإسناده ضعيف.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه (٤/ ٢٢٧) وأحمد في المسند (١/ ١٧١) قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

التفسير منهﷺ إشارة واضحة إلى ما تعيشه الأمة من نماذج العذاب الأليم بالحروب المدمرة والأسلحة الفتّاكة المتنوعة.

وكثير من الحوادث التي أشار إليهاﷺ منذ عهده وما بعد ذلك بيَّنت سلامة الصادقين وكَذِب الكاذبين ومواقع الخلل في مسيرة الحُكْم والعِلم والولاء، بل وضبطت للأئمة الوارثين مواقف العلاقة بالفتن وإجراء ما يناسب فيها.

ومن هذه الأحاديث قولهﷺ: «إياكم والفِتَن، لا يَشْخَصْ لها أحد، فوالله ما شَخَصَ لها أحد إلا نسفته كما يُنْسَف السيل، إنها تشتبه مُقْبِلةً حتى يقولُ الجاهل: هذا يشبه، وتبين مُدْبِرَة، فإذا رأيتموها فاجتمعوا في بيوتكم، وكسّروا سيوفكم، وقطّعوا أوتاركم»(١).

وعن حذيفة بن اليمان أن رجلاً قال له: «كيف تأمرني إذا اقتتل المصلّون؟ قال: تدخل بيتك ثم تعلق عليك بابك فمن جاءك فقل (هكذا) – وقال سفيان بيده فاكتتف – وقل: بؤ بإثمي وإثمك»(٢).

---

(١) انظر مستدرك الحاكم (٤/ ٤٩٥) والحديث صحيح.

(٢) قال الإمام أحمد في المسند (٤/ ٢٢٦) ثنا عبد الصمد، ثنا زياد بن مسلم أبو عمر، ثنا أبو الأشعث الصنعاني قال: «بعثنا يزيد بن معاوية إلى ابن الزبير فلما قدمت المدينة دخلت على فلان سمى زياد اسمه فقال: إن الناس قد صنعوا ما صنعوا فما ترى؟ فقال:

هذه الأحاديث ومثلها أفرزت مواقف هامة أمام مجريات الفتن الساحقة الماحقة، وخاصة تلك الفتن التي دارت بين المصلين أنفسهم من أمة محمدﷺ، ولأن الأئمة من هذا النمط إنما يبحثون عن السلامة في الدارين فقد تخلصوا من عقدة الأنوية (أنا خير منه) ومن عقدة الأنانية (أنا لا غير)، واتسعت فهومهم الأخلاقية للنظر الأكيد لما عند الله ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل:٩٦] فصَغُرت الحياة الدنيا في أعينهم، وخَرَجت من سويداء قلوبهم، ووجدوا مِنْ حقائق التوجيه النبوي الأبوي عوضاً عن الصراع المفضي إلى الحرب والدماء والأحقاد والضغائن، فكان منهم الالتزام بما يخالف الطبع البشري ومواقف الشرع الرباني، فطابت نفوسهم بعوض الله وشرع الله وما أوعد الله الصابرين في مثل قوله ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة:١٥٦]، وفي مثل

أوصاني خليلي أبو القاسمﷺ إن أدركت شيئاً من هذه الفتن فاعمد إلى أُحُدٍ فاكسر به حد سيفك ثم اقعد في بيتك. قال: فإن دخل عليك أحد إلى البيت؟ فقم إلى المخدع. فإن دخلك عليك المخدع فاجث على ركبتيك، وقل: بؤ بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين، فقد كسرت حد سيفي وقعدت في بيتي»، وفي الباب عن أبي ذر أخرجه أبو داود في سننه (٥/ ٢١، ٢٢) وابن ماجه في سننه (٢/ ١٣٠٨) وأحمد في المسند (٥/ ١٦٣).

قولـــه: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ [النحل:١٢٧-١٢٨]، ومـن مثـل قولـه: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٩]، وكان لهذه المعـارف الربانيـة في الجانـب العمـلي الـذاتي انعكـاسٌ عجيـب عـلى النفوسِ والعقولِ والقلوب، وهي ترى الخصم والعدو والظـالم يتمتّـع بـالظلمِ، ويَرْتَع في حقوق الآخرين غير راغبٍ في الإنصاف ولا مدّكرٍ ولا متـذكر، وبهـذا يكون ردة الفعل منهم بعد النصيحة، والقيام بما يجب الإعراض وعدم المـشاركة للظالم، والاعتزال عن تيـار حركتـه ومـصلحته، اسـتجابة أيـضاً لقولـه تعـالى: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٩].

والجاهلون من هذا النموذج هم العلماء والحكام والمثقفـون الـذين امتلكـوا نصيباً من العِلْم والقرار، ولكنهم جَهِلوا على الغير بالسّفه والبَطَر وغَمْـط الحـق بعد معرفته، فلا جزاء لهم من الرجـال الـصالحين - أهـل الله - غـير الإعـراض والتغافل.

إنَّ حقيقة الأحاديث النبوية والآيات القرآنية المنظِّمة للعقلاء أهداف الحيـاة كلها مجموعة في الـركن الرابـع مـن أركـان الـدين، ومبثوثـة في كُتُـبِ الحـديث والتفسير، خصوصاً عند أبواب الفِتَن والملاحم وعلامات الساعة، وقـد اعتنـى

رجال النمط الأوسط رضي الله عنه وأرضاهم بتحويل هذه العلوم والنصوص إلى سلوكٍ عملي وأخلاق يومية يواجهون بها تقلبات الحياة وتحولات المراحل.

ومع انعدام الدراسة الواعية لأركان الدين وانشغال الجميع بمخرجات التحولات السياسية والتطورات الإعلامية والاقتصادية، وانسحاب الكثير من رجال الحق الشرعي بالأسباب المشار إليها سلفاً عن مواقع القرار التعليمي والتربوي؛ جاءت البدائل المسيسة عالمياً، ونافست نماذج الأبنية المتناقضة المتعارضة التي خلّفتها للأمة في مراحل الصراع والنزاع القبلي والسياسي الداخل.

إن دراستنا المستجدة لفقه التحولات الشرعي من داخل الديانة ونصوصها وإعادة قراءة الأصلين العالميين الكِتَاب والسُنَّة بنفس الأخلاق النبوية ذاتها - وليس بأنفاس السياسة والتسييس - يجعل من هذا الفقه الشرعي دليلاً علمياً لتفسير مواقف النمط الأوسط، وأيضاً دليلاً عملياً لتهور واندفاع أطراف الإفراط والتفريط في سبيل الدنيا ومصالحها الفانية.

وبمقدار غياب الإدراك والعِلْم بحقائق فقه التحولات وما يترتب عليه يتردّى الظالمون في ظلمهم، ويندفع المندفعون في تحدياتهم، ويستمر أهل التعدي في تعدّيهم، ولا عاصم اليوم من أمر الله إلا مَنْ رَحِم.

إن العديد من أولي المعرفة يفسرون سلوك أهل النمط الأوسط حَمَلَة منهج السلامة بالانهزامية، والهروب عن مواجهة الواقع، والجبانة المخالفة لمفهوم الديانة القائمة على العزَّة وخوض المعركة مع الباطلِ وأهله.

وعندما نعرض الأمر على فقه التحولات ونصوصه الشرعية نرى حقيقة الفراغ المعرفي لدى أولئك المعجبين بإصدار الأحكام والفتاوى، وخصوصاً في دقائق هذا الفقه الشرعي الخاص بمواقف الرجولة لدى تحولات المراحل وتقلبات الأزمنة، ووقوعهم وللأسف في طرفي الإفراط والتفريط مِنْ حيث رؤيتهم الاندفاعية للأمور.

لقد كانت الصدِّيقة عائشة رضي الله عنه يوماً من الأيام في تاريخ التحولات تسيرُ على بعيرها مع الجيش المناهض للإمام علي، وبقناعة تامة واجتهاد شرعي خاص، ولما بَلَغَت إلى موقع يُعْرَف بـ(ماء الحوأب) نبحتها الكلاب، فَسَأَلَت مَنْ حولها عَنِ المكان، فقيل: إنّه (ماء الحوأب)، فَصَاحَتْ «رُدّوني رُدّوني»[1] أي: أرجعوني إلى حيث كنت، حيثُ تبيَّن لها بالنص الشرعي مِنْ فِقْهِ التحولات

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٥٢) والحاكم في المستدرك (٣/ ١٢٠) من حديث قيس بن أبي حازم، عن عائشة، وفي الباب عن ابن عباس قال الحافظ نور الدين الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٣٧) رواه البزار ورجاله ثقات.

الخاص بمجريات الأحداث والتقلبات أنَّ موقفها السياسي في هذا الخروج غير مشروع، وأن اجتهادها باطل، وارتفع صوتها، وتوقَّفَت حركة الجيش، وكاد الموقف أن يتغير في الجيش كله، وفَطِنَ المهندسون للقضايا والمحرِّكون للأمور عَكْسَ تيارِ الحقيقة أنَّ موقف عائشة قد يقلب موازين المعركة كلها، فجاء قائد الجيش بأربعين حالفاً بالله أن هذا الماء ليس ماء الحوأب، فَصَدَّقَتْهُم عائشة، وَنَفَذَ قضاءُ الله وَقَدَرُه.

لقد سارت مسيرة التسييس للمعركة وفق مُراد الشيطانِ ووكلائه، بينما فقه التحولات الشرعي قد دفع الاجتهاد الخاص وأبرز بالسِّمة والعلامة خطورة المسيرة الزاحفة، وبَقِيَت هذه الحادثة ومثلها في نَفْس الصِّدّيقة تُمَثّل مدرسة عظيمة الأثر والتأثير، بعد أن عرفت حقائق الأمور، وانكشفت لها خطورة ما سارت إليه بتأييد أهل البغي والاندفاع، كما برز لها شرف المعاملة التي عاملها بها رجال النمط الأوسط وهو يتذكر من نصوص فقه التحولات قول المشرِّع الأعظمﷺ: «إن وليت من أمرها شيئاً فارفِق بها»[1].

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٤١١) من حديث أم سلمة، وعن أبي رافع أن رسول اللهﷺ قال لعلي بن أبي طالب إنه سيكون بينك وبين عائشة أمر. قال: أنا يا رسول الله؟ قال: نعم. قال: أنا أشقاهم يا رسول الله؟ قال: لا، ولكن إذا كان ذلك

ومفهوم الرفق الذي ينص عليه رسول الله ﷺ للإمام علي يشير إلى ضرورة العقل في التصرف خلال المعركة والحرب، وقد فَعَل ذلك، وهذا ما ميَّز رجال النمط الأوسط عن غيرهم في الحرب والسِّلم.

فالذين بَقِيَ في نُفُوسِهِم شيءٌ مِنْ مواقف عائشة الصِّدّيقة أمام الإمام علي رضي الله عنه ذَهَبَ مِنْ ألسنتهم وأقلامهم مفهوم الرّفق الذي أوصى به ﷺ لأنهم ليسوا مِن أهل هذا النمط، وفاقِدُ الشيء لا يُعْطيه، فَكَانَت مُخْرَجات تناولهم لمواقف الصِّدّيقة رضي الله عنه مواقف المحاسبة والطعن واللمز والهمز، مما يؤكد نزولهم إلى طرف التفريط المُسِف.

وكان موقف الإمام الحسن من الرِّفق بالأمة بالمكان الأوفى، وَقَد سَبَقَ لنا تناول مواقفه الشجاعة وفي أحرج مواقف اتخاذ القرار، وهكذا يمكن لنا أن نتتبع مواقف هؤلاء الأبطال دون النظر إلى قضية الأخذ بالسيف والرمح والسلاح، وحتى مراحل الأحفاد وأحفاد الأحفاد في مَنْ سُمّوا (بقية السيف وسادة الصُلح) أو ممن يدخلون في مفهوم النمط الأوسط بالعموم، فالجميع من هذا النموذج أسسوا منهج السلامة، ووضعوا قواعده العلمية في الأمة، وَمِن ثمَّ

فارددها إلى مأمنها. قال الحافظ نور الدين الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٣٧): رواه أحمد والبزار والطبراني ورجاله ثقات.

بَـرَزَت مِـن ثمـرات هـذا المـنهج الـواعي مدرسـة الزهـد الإسـلامي المعروفـة بالتصوف النقي المعتدل.

والتصوف النقي المعتدل هو الأنموذج الفكري العلمي العملي المؤسس منذ بدء المرحلة الإسلامية الأولى على يد رواد الـنمط الأوسـط، وتفرعـت مـنهم في العالمين العربي والإسلامي مدارس الزهد والتصوف المتنوعة بعد ذلك بـما فيهـا من طرفي الإفراط والتفريط.

إن الإفراط والتفريط ينبـت في جـو الـسلامة والاعتـدال، ثـم مـا يلبـث أن ينحني إلى أحد جانبي الإفراط لدى المحبين والغلاة، أوإلى جانب التفـريط عنـد المبغضين الجفاة، وقد كان أساس ظهور هـذه المدرسـة العالميـة مواقـف الأئمـة الزاهدين عن الدنيا وزبانيتها، وكانت هذه المواقف - كما أشرنـا سـابقا - تـدل على عُمْق القراءة الواعية لعلامات الساعة وما يكون فيها مِن هَرَجٍ ومَرَجٍ ومِحَـن وفِتَن تَدَعُ الحليم حيراناً، وما ترتب على هذه القراءة من معالجاتٍ شرعيـة تحفـظ الفرد والأسرة والأمة، أمّا ما يتعلق بمسألة الجهاد في سبيل الله - مِنْ وجهة نَظَـر هذه المدرسة - فهو أمرٌ لا غُبَارَ عليه، إذ لم تعطل المدرسـة ركنـاً شرعيـا في حيـاة الأمة، وإنما اتخذت موقف السلامة من الحروب الداخلية المتخذة شكل الأطـماع

و التنافسات على القرار والحطام، وَمِن حروب الثارات والـصراعات التنافـسية القائمة على العِرْق والطائفية والقبلية.

وقد شَهِدَ رجالُ هذه المدرسة التطاحن الداخلي بين المصلين، فكانَ لابُدَّ لَهُـم مِن اتخـاذِ الموقـف الايجـابي المناسـب، والموقـف المناسـب هـو مـا نـصَّت عليـه الأحاديث الشريفة مِنْ كَسْرِ السيف ولـزوم البيـت، وعَـدَم المـشاركة في الظُلْـمِ وأسبابه[1].

وليس ببعيد أنْ تقوم مدرسة النمط الأوسط ـ سـاعة قيـام الجهـاد الـشرعي الموثوق في سبيل الله وبالشروط المعتبرة ـ بإعادة النظر في مسألة (كَسْرِ الـسيف)، وخاصةً عندما يكون الجهاد في سبيل الله جزءاً من بنـاء فُـرَصِ الـسلامة للأمـة، واقتلاعِ شَجَرَةِ التَّحْريش الكافرة، أما والحالُ مـا نَحْـنُ عليـهِ ومـا سَـبَقَ للأمـة الوقوع، فإنَّ فِقْهِ التحولات يؤيدُ مواقِفَ الالتـزامِ ودعـوات الـسلام، ومعالجـة

---

(١) وفي ذلك ما رواه الحسن بن علي قال: «قال محمـد بـن مـسلمة: أعطـاني رسـول الله ﷺ سيفاً فقال: قاتل به المشركين ما قاتلوا، فإذا رأيت الناس يـضرب بعـضهم بعـضاً (أو كلمة نحوها) فاعمد إلى صخرة فاضربه بها حتـى ينكـسر، ثـم اقعـد في بيتـك حتـى تأتيك يد خاطئة أو منية قاضية» ، أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٢٢٥) ورجاله ثقات إلا أن فيه انقطاع.

السلبيات من داخل الثوابت المنصوص عليها في مراحل الفتن وفقدان القرار من غير إجحاف ولا إسفاف.

إنَّ مسألة المحافظة على دماء الشعوبِ، والعَمَلِ على سلامةِ عيشها، والاستفادة مِنَ الظروف المهيئة لها في البناء والتنمية، وتقاسم المصالح المشتركة مع سلامة ثوابت التعبد والمعاملة لهي مِنَ المُهمات الضرورية لدى رجالِ مدرسة النمط الأوسط في كافة المراحل التاريخية، ومنها مرحلة الإمام الحسن بعدَ عودته مِنَ العراق مع أهل البيت، ومَكْثِهِ تسع سنوات أو تزيد وهو قائم بالحقوق غير منافس لسلطان، و لا مطالب بقرار، ولا متآمر في الظلِّ من أجل الحصول عليه، ويؤكد ذلك موقف رجال هذه المدرسة من بعده كمرحلة الإمام المهاجر في حضرموت، وتأسيس السلامة كلها جيلاً بعد جيل، حتى المرحلة المعروفة بمرحلة العهد القبلي حيث استخدم آل البيت ورجال النمط الأوسط نفوذهم الروحي في توسيع فُرَص الأمان والسلامة بين الشعوب والقبائل المتناحرة، وفتحوا أبوابَ الأربطةِ والمساجدِ للتعلُّم الشرعي، دون تمييزٍ أو انتقاء، ونشروا الدعوة إلى الله في الخاص والعام دون الحاجة للميزانيات المالية أو المخصصات الحكومية أو الانتماءات الحزبية التي يَزْخَر بها اليوم مجتمعنا العربي والإسلامي، ولازالت هذه الأنفاس الأبوية في كثيرٍ مِنْ بلاد اليمن إلى اليوم سائرة في طريقها،

وخاصة فيما يتعلق بنشر الدعوة والتعليم، وأما ما يتعلق بالمواقف الأخرى فقد انتهى دورها بدخول البلاد إلى مرحلة التسييس الحكومي خلال مرحلة التطبيع لمناطق الجنوب آنذاك فيما كان يسمى بالحماية البريطانية وما تلاها.

لقد كانت قضية التحولات وفقه المواقف فيها مسألة هامة لدى رجال مدرسة النمط الأوسط منذ القدم، واستمر العمل عليها والالتزام لها دون تغيير أو تبديل برغم المضايقات المتنوعة والضغوطات المرحلية المتعددة ذاك لوجود الرجال الذين يقتدى بهم، والأئمة الذين يهتدى بهديهم ويُرْجع إليهم، والشيوخ الحاملين سر الوراثة .

أبٌ يتلقى عن أبيه وهكذا فيالك من أباء كرام وأجداد

وفي مرحلتنا الأخيرة اهتز هذا الشرط الأبوي في غالب المنتسبين إلى هذه المدرسة لما قد جرى من التحولات السياسية والثقافية الإعلامية التربوية والتعليمية، وكان لهذا الاهتزاز أثرٌ بالغ في موقع المدرسة الأبوية ومكانتها الدعوية والثقافية.

ولأجل معالجة هذا الخلل الخطير في منهجيتنا الأبوية وعلاقتنا الشرعية بمدارس النمط الأوسط التاريخية برزت فكرة الإعادة الضرورية لدراسة فقه التحولات، وربطه شرعاً بالرُّكن الرابع من أركان الدين، وشرح ثوابته للأجيال

الراغبة في فهم حقائق الالتزام بالديانة في كافة مراحل التقلبات، وإبراز شَرَف السلوك الذي حافظ عليه الأئمة الهداة حيثما كانوا ونزلوا.

ودعوة صادقة لمن رَغِبَ من أحفاد وأتباع هذه المدرسة المباركة أن ينال بركة أسلافه فيه ويقرأ حقيقة حالهم من داخل مدرستهم مع كمال الإنصاف والانتصاف، فلعل وعسى أن يكون ذلك سبباً في إنهاض الأحوال والقلوب وحُسن الرجوع إلى علّام الغيوب، وحسن التأدب مع السلف ومواقفهم التي حَفِظوا بها شَرَف الأبوّة ودعوة النبوة من غير إفراطٍ ولا تفريط.

المناهج الأبوية والمواقف المأخوذة عليها

عندما نعود إلى مؤلَّفات المرحلة المعاصرة على مدى خمسين عاماً أو تزيد نجد تغيّراً خطيراً في أسلوب التحليل لمعتقدات ومواقف وعادات وتقاليد وعلاقات المدارس الأبوية التقليدية المعروفة باسم الصوفية والمذهبية وآل البيت، وعندما يتسع المرء في الملاحقة والمتابعة لبعض الأجهزة والمنابر ذات العلاقة بمدرسة معينة، يجد التركيز المباشر في الانتقاد والنبز والهمز واللَّمز ليصبح ظاهرة المرحلة وعلى ألسِنَة الجميع، بل ويكون في بعض الأحايين على ألسِنَة الأطفال وَجَهَلَة البداوة والنساء، فالكل يتناول النبز بالتشريك والتظليل وشمول البدعة لكل ما يَمُتُّ إلى القديم بِصِلَة.

وصار الأمر مع مرور السنوات المتتالية مستفحلاً في كل قرية ومدينة وناحية، وعلى غير ضابطٍ دعوي أو تربوي أو تعليمي، بل صار الأمرُ أشبه ما يكون بالنظر إلى المعلول بصرف النظر عن حقيقة علته الذي يجب أن لا يحتك بالآخرين سواء عرف الناس عدوى العلة أم لم يعرفوها.

ونحن هنا في كتابنا هذا قد أعطينا المدرسة الأبوية بأسسها الثلاثة (المذهبية والصوفية وآل البيت) موقعاً هاماً من حياة الأمة عبر التاريخ الإسلامي كله، وأطلقنا عليها مسميات (النمط الأوسط) و (بقية السيف وسادة الصُلح) و

(مدرسة الزُّهد) باعتبار تسلسلها السندي والعلمي والتاريخي بالأصـول الأولى في حياة الأمة الإسلامية، فهل يعني هـذا أنَّ تناولنـا المدرسـة الأبويـة الذوقيـة بالعاطفة المجردة والانتماء الذاتي دون أن ننظر في السلبيات والجنوحات، أم أن تربيتنا الأولى ودراستنا العلمية المرتبطة بهذه المدرسة قد أعمت علينا البصر وعتمت الرؤية مثلما قال المثل العربي: «حبك الشيء يعمي ويصم»[1] أم غير ذلك؟

والإجابة على هذه التساؤلات يعيدنا إلى جِذْر المسألة وأساسها والجذر لمثل هذه المسألة أن الإسلام وديانته الشرعية عبر تاريخ التحولات قد خدم خدمة

---

(١) قد روي هذا مرفوعاً عن النبيﷺ فأخرج أبو داود في سننه (٥/ ٤٠٨) وأحمد في المسند (٥/ ١٩٤) والبخاري في التاريخ الكبير (٢/ ١٠٧) من طريق أبي بكر بن أبي مريم عن خالد بن محمد الثقفي عن بلال بن أبي الدرداء عن أبي الدرداء عن النبيﷺ قال: «حبك الشيء يعمي ويصم»، وأخرجه أبو الشيخ ابن حيان الحافظ في الأمثال (ص٧٠) من طريق محمد بن مصغي، ثنا بقية، ثنا صفوان بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، قال: كنا في قافلة فخرج علينا بلال بن أبي الدرداء فقطع علينا الحديث، فقلنا: ابن صاحب رسول اللهﷺ وقال: سمعت أبي يقول: (ثم ذكره مرفوعاً) ومحمد بن مصغي مدلس لكنه صرح بالسماع، وكذا شيخه بقية فهذا إسناد لا بأس به وبه يكون الحديث حسناً.

علمية كبرى على أساس الاعتناء الواعي بأركان الدين الثلاثة: (الإسلام، الإيمان، والإحسان) واجتهادات وفهوم وأصول وتفريعات وإفراطات وتفريطات، واختلف علماء المذهبية والصوفية وآل البيت في فهومهم وتعليلاتهم للنصوص والأصول، وتراكم في الواقع العربي والإسلامي فوق المذاهب المشار إليها مذاهب أخرى ذات مفاهيم أخرى جَنَحَت إلى طرفي الإفراط والتفريط، واختلط الحابل بالنابل كما يقولون، وصارت القراءة للواقع لدى بعض المُصْلحين قراءة تشاؤم وتعليل حالة وظاهرة، دون التمحيص في قضايا الأسباب والمسببات، بل صار بعضُ أهلِ العلم الراغبين في إعادة الالتزام بالديانة على وجهها الصحيح يُصدر الأَحكام تلو الأحكام على ما يراه سلبياً دون أن يكلِّف نفسه عناء التصحيح والتصويب واختراق مواقع العلة لاكتشاف موقع الخطأ، ومعرفة بؤرة الفساد والإفساد وأسبابها.

ووقع المسلمون في واقعهم المتحوّل ضحيةَ نموذجين من المُصلحين: مُصلحٍ ينظر إلى الحياة من حيث هو، ولا يعطي الآخرين ممن ينهجون المنهج المخالف له موقعاً من الإصلاح والإعادة.

ومُصلح ينطلق في سيره العلمي والعملي وفق برنامج سياسي أو مسيّس لا بديل عنه ولا حياد فيه، فهو بلا شك غير قادر على الخروج من دائرة هذا

التسييس، وملزم بإشاعة ثقافة برنامجه ولو على حساب الشعوب، وتحت هـذين النموذجين سرى الإشكال في العلاقات تلو الإشكال منـذ العهـود الأولى حتـى جاء عهد الغثائية.

وعهد الغثائية عهد سماه رسول الله ﷺ واعتنـى بتحديـد مخرجاتـه وإيـضاح هويات دعائه وحماته ورجاله، ولكن النموذجين من المصلحين المـشار إلـيهم لا يعرفون شيئاً عن المراحل ولا عن محركي أو ناقضي ثوابتها، وإنما يقتصر نظـرهم على تـسويق المعلبـات والمنتجـات والمخرجـات، ويـستلمون عائـدات عملهـم الشرعي والوضعي من الجهات الرسمية وشبه الرسمية، وحتى اليوم والليلة.

وهنا أصل المشكلة وأسبابها وهنا أيضاً عنـد فهـم الأمـر حلّهـا وعلاجهـا، وأول المعنيين بهذا الأمر أمناء العلم ثم أمناء الحُكْم، وأكرر العبارة: أمنـاء العلـم وأمناء الحُكْم، ليفهم القارئ ما أعنيـه مـن لَفْظِـة الأُمَنـاء، لأننـا سَنَـضَع العِلْـم والحُكْم خلال تحولات المراحل في ميـزان التمحـيص، ولـن نتعـرض لجزئيـات الصراع المفتعل بين أتبـاع المدرسـة الأبويـة وأتبـاع المدرسـة الرَّبويـة، لأن هـذا الصراع هو الوقود والديناميت الناسف بمتناقضاته تركيب العلاقة الشرعية بـين الشعوب، وإنما سنتناول مواقع العلَّة ورأس التحوّل وأسباب المغالبـة في الواقـع المعلول، وسندين بمواقع دراستنا الواعية من خلال قراءة لغـة الإسـلام العالميـة

كتاب الله وسُنَّة نبيه محمدﷺ ومادة الأخلاق النبوية عباقرة التسييس والتـدنيس ووكلاء الشيطان المدرّبين الذين وصلت أيديهم وعقولهم إلى موقـع قـرار الأمـة فأعادوا هندسة الأديان والتدين وعلاقة المصلين في العالم المغلـوب عـلى أسـاس الشعار العالمي للشيطان (فَرِّق تَسُد)، فكان هذا الشعار العالمي وأسـباب تنفيـذه في العالم عاملٌ أساسي للصراعات والنزاعات بين الـشعوب والـدول والأنظمـة والمذاهب والجماعات والجمعيـات، إسـلامية أو غـير إسـلامية باعتبـار عـداوة الشيطان للجميع.

إننا نضع تحليلنـا للأمـور بكـمال الـوعي والإدراك بعيـداً عـن الطموحـات والعواطف والمجاملات، والوعي والإدراك هنـا لـيس ثمـرة قـراءة الواقـع ولا مخرجاته ولا الاشتغال بمؤلفات السلفية ضد الـصوفية ولا العكـس ولا الـسُنَّة ضد الشيعة ولا العكس، ولا الاشتغال أيضاً بمخرجات الصراع الـسياسي بـين المجموعات المتنازعة كراسي القرار بين الحامـل للقـرار والمعـارض لـه، ولا بـما تحرِّرُه يومياً وشهرياً صُحُف المرحلة ووسائلها الإعلامية، ولا حتـى بـما تجلجـل من أصوات العلماء الأفاضـل مـن منـابر المـساجد الثلاثـة والأربعـة والخمـسة والألف والمائة ألف، فهذه في غالبيتها مخرجات التحوُّل وثمرة التسييس إلا مَـنْ رَحِـمَ الله، ويـدخُل فيهـا مـسرحيات الحـروب الإقليميـة والعالميـة، وحـروب

الطائفية والعِرْقية والقبلية والثارات وغيرها من الحشودات السالفة تاريخياً، والحشودات الجديدة المجهَّزة لمراحلنا المعاصرة وما يليها استمرار لإنجاح مشروع الشيطان العالمي في الإنسانية جمعاء.

إن كمال الوعي والإدراك هنا هو قراءة جديدة للقرآن والسُنَّة بِلِسان النبوّة، وشرف تسلسل الأبوّة المحفوظ بحفظ الله من غيرِ إفراطٍ ولا تفريط ولا جنوح ولا إفك ولا استحضارات ولا استخدامات ولا طلسمات ولا سحر ولا تضليل ولا كبرياء ولاعجب.

إنها القراءة الواعية للمادة الشرعية المُنْزَلَة مِن عند الله لعلاج الأمة في عصرها الأخير، القراءة الجديرة بقوله تعالى عن كتابه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨]، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم:٩٧].

إن هذه القراءة للأصلين الشريفين بلسان النبوة، ولسانها الأخلاق المحمدية العظمى المقررة عظمتها في سورة ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:١-٤]، هذه الأخلاق النبوية العظيمة مدرسة الديانة الأخيرة في العالم وليست خصوصية لرسول اللهﷺ فقط، إنها الميزان الأعظم، وهو الفيصل الحق بين الخير والشر،

والحق والباطل، والصدق والكذب، وهي أيضاً مادة الكشف الشرعي لمجموعات العمل الإسلامي الأبوي، ومجموعات العمل الاستسلامي الأنوي، وبها تنقشع سحائب الجهالات والضلالات والتهم الجائرة على أمة العبادات وصالحي المسلمين والمسلمات، إنها قراءة تعيد الاعتبار للمسلم والمسلمة، وتدمغ الإفك الكاذب ومن يعمل لإلصاقه بأمة التوحيد وتوحيد الأمة، ومن يعمل لتلويث آل البيت وإغفاله موقعهم من النمط الأوسط وإقصائهم عن دورهم الريادي في تسيير دفة السفينة المندفعة في طوفان المنافسات.

إن الناظرين لآل البيت من نظرة العِرْق والطَّبَقِيَّة والذوات أو من نظرة التحولات ومشاركة البعض منهم في هذه المنطلقات المسيّسة إنما يعيدون الرؤية الإبليسية، لأنهم لا يستطيعون أن يشهدوا خصوصية التوجه الشرعي في مدارسهم ومناهجهم إلى الخير وأهله، فيرون الخير شراً، وأن أهل الشر هم أهل الخير والعكس كذلك.

ومثل هذا الفهم الشرعي غائب تماماً على أولياء الشيطان وإن كانوا في المحاريب أو فوق المنابر، فالشيطان مستثمر سلبي للديانة، ومتحرك ناجح بها، بل كانت أول وسائله في إحراج الإنسان وإخراجه من شرف السكنى في العالم الأبدي، وهي أفضل وسائله عبر العصور لإحراج الإنسان وإخراجه من شرف

المنهج الأبوي الشرعي إلى مشروع المنهج الأنوي الوضعي، القائم على التفرقة والإفك والحيلة والتربص والاحتناك وسوء الظن وتشويه الحقائق والمدافعة عن الشر والموت من أجله، ولم يكن الإنسان المتلبس بهذه النقائض إلا ضعيف الذات قرين النزوات شيطاناً في صورة إنسان، وإبليس مخلوق ظالم في صورة حاكم أو عالم.

إن الأصل الرابع من أصول الديانة قد أثبت شمول الغفلة والعماية في المراحل المتحولة، كما أثبت وجودها في عصر الوحي والرسالة لدى مجموعات النفاق والكفر والإرجاف، وأثبت خطورتها على العقل والوعي والسلوك، وأشار إلى قدرة مخرجاتها الفكرية على قَلْبِ حقائق الأمور واستثمار الشعوب لخدمة الشيطان ومشاريعه الفاجرة الكافرة وبصلابة وقوة منقطعة النظير، وما كانت حياتهﷺ إلا ساحة معركة مجتمعة الشروط لإبراز الحق إلى قيام الساعة، وقلنا إلى قيام الساعة وليس إلى وفاة رسول اللهﷺ وانقطاع الوحي، لأنها معركة واحدة في مرحلة واحدة، بيَّنهاﷺ بقوله: «بُعِثْتُ أَنَا والساعة كهاتين»[1]، ولأجل أن يكون لمواقفه في التحولات حضور نبَّهﷺ إلى بعثته الشرعية ومسؤوليتها العالمية إلى قيام الساعة، وأن هذه المسؤولية جزءٌ منها في تثبيت قواعدها مبنيٌّ

(١) سبق تخريجه.

على وجودِهِﷺ ذاتياً في الحياة الإنسانية مدعوماً بالعصمة والوحي، وأما ما بعد ذلك فتَسير الأمور وفق القواعد التي هيأها بالرجال والنصوص والآداب مضارعة للسلبيات المعارضة كلها، فَمَدْرَسَة اليهود والنصارى اليوم هي تلك المدرسة الأولى التي عاصرت بزوغ فجر الإسلام وتآمرت عليه ولم تهادن ولم تجامل ، بل اخترقت صفوف الأتباع في المدينة وعَمِلَت على إذكاء نار الجاهلية والعرقية والقبلية ودعمتها مادياً وعلمياً وروحياً.

ومدرسة النفاق كذلك ترسَّخَت منذ وصولهﷺ إلى المدينة وبرزت معادلاً خطيراً داخل سقف المسجد الحرام وداخل جيوش معارك الإسلام، ولم تتخلَّف عن الصلاة والصيام وإقامة شروط الشرع العملية والتزام ظاهر الأحكام، وحاولت أن تشقّ عصا الطاعة وتشطر القرار بسياسة الشيطان (فَرِّق تَسُد) وعَمِلَت على ذلك ببناء مسجد الضرار، وكادت أن تنجح لولا عناية الله تعالى ونزول الآيات الكريمات الآمرة بهدم المسجد.

ولكن الذي لم يتحقق للمدرسة في عهد الوحي وعصمة صاحب الرسالةﷺ قد تحقق بيقين فيما بعد ذلك، ولَبِسَت تلك القوى لباس الإسلام ذاته ليحقق برنامج الشيطان في لباس الإسلام وشخوص ممثليه، فالغاية تبرّر الوسيلة.

إننا نتناول قضايا خطيرة مِن كُلِّ جهاتها، ولكنا لا نرغب في الحيلة ولا الكَذِب ولا الخيانة، فالشعوب مخدوعة، والمدارس الإسلامية الأبوية موجوعة، والقوى الإبليسية المؤثرة والفاعلة مجموعة، ولسنا فقراء عن الحق بل نحن مغيَّبون عنه، ولا مجال البتَّة للصمت بعد ظهور الحقائق، فالحقُّ أحقُّ أنْ يُتَّبَع، والذين نرجو لهم ولنا الهداية واتباع الحق هم المخدوعون المغرر بهم، وهم قومٌ كُثُر مِنَّا ومن غيرنا، وأما غيرهم فلا نطمع في إلزام أحد بالاتباع وإنما نبسط له الحقيقة ونذكره بالله وآياته فلعلَّ وعسى...

وهناك وبعد هذا الإيضاح مَنْ يفهم الأمور مغلوطة ويفسر العبارات تفسيراً يتلاءم مع توجهاته وأفكاره الدائرة في ذات الفَلَك المسيس أو قريباً منه ليستثمر الفكرة ويتقمص الصورة ويوظِّف الرؤية الجديدة ضمن المشروع العالمي للشيطان، وهذا أمرٌ مُتَوقَّعٌ ومُنْتَظَر ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر:٥].

ونحن لا نعني هنا غير من يرغب السلامة في نفسه وفي علاقته الشرعية بغيره على أساس من البناء الواعي المعتدل كما قد سبقت الإشارة في الفصول السابقة، ذاك لأن الراغبين في التحريش لا ينطلقون من هذا المنطلق الشرعي،

وإنما أشغلوا أنفسهم بتبرئـة أنفـسهم وإحـراج غـيرهم والإصرار عـلى إصـدار الأحكام بالتكفير والشريك والتبديع حيناً للمجموع وحيناً للأفراد.

والتشريك والتكفير ليسَ إلا دلالة على إصرار الفرد أو الجماعـة عـلى تحمّـل مسؤوليات الحُكم وقبول تبعاته عند الله ﷻ لما تقـرر لديـه مـن الـدليل الموهـوم، فأحرج نفسه ثم صار يوزّع الإحراج عـلى الأمـة، ومثـل هـذه الظـاهرة ليـست جديدة في سوق المواجهة بين الحق والباطل، وإنما هي قديمة قِدَم الإسلام ذاتـه، وإنما بقى اليوم بعض ثمراتها وآثارها وامتداداتها.

ومنها إصرار العديد من عُلـماء ومهنـدسي هـذه الفئـات عـلى الفـصل بـين الإسلام وبين أتباعه مع الاعتراف التام بفعالية مدرسة الإفراط والتفريط وتبنيها في المعاملات والأحكام والمواقف، ومنها الوقوف ضد المدرسة الصوفية.

ولأنَّ الصوفية - مِنْ وجهة نظر فقه التحولات - ليست مدرسةً مستقلة عن المذهبية وآل البيت، بل هي مزيجٌ مختلط، فالفصل المتعمَّـد للـصوفية هـو أيـضاً عزلٌ وفصل للتصوف على موقعه الشرعي من أركان الدين الثلاثة، لأنـه الـرُّكن الثالث من أركانها وهو الإحـسان، ولـن يقـوم بمثـل هـذا الفعـل مـن الفـصل والإقصاء إلا فرد أو مدرسة منقطعة الصلة بهذه الثوابـت الـشرعية المـستندة إلى الأصلين كتاب الله وسُنَّة نبيه ﷺ ولو من بعـض الوجـوه، وهـدفها الغـائي هـو

هدف الشيطان ذاته من شعار (فَرِّق تَسُد)، وقد حقَّقت هذه المدرسة الجافية نسبة من السيادة بحملها لواء التفريق بين التصوف الإسلامي والإسلام، كما حققت المدرسة الغالية الأخرى هَدَف الشيطان في الأمة المحمدية بعمومها في المذهبية والتصوف وآل البيت.

إن دعوة النمط الأوسط عبر تاريخ التحولات يعنى ببناء الأمة على المحبة والرحمة والسلام، ويدفع عن الأتباع كافة عوامل الإفراط والتفريط المشار إليها سلفاً، وعدم تعميم الأحكام على الكل من المخالفين والمتشددين.

فالإسلام دين الفُسْحَةِ والمعالجة والقدوة الحسنة بسلوك النبيﷺ في أشد مراحل الحرج، وقد استطاعﷺ أن يتّسع في ظاهر سلوكه وعلاقته مع شريحة النِفاق في مسجده الشريف، وفي حربه وسلمه، دون إثارتهم أو إصدار الأحكام العلنية بطردهم أو مقاطعتهم عموماً، وإن كان القرآن قد كشفهم ولعنهم لأنهﷺ يرسي لأمته ثوابت المعاملة مع الموافق والمعارض، وعلى هذا الطريق سلك العلماء والصالحون من أتباع النمط الأوسط.

أما طرفا الغلو والجفا فقد ضلاّ في كافة المراحل سببَ الاصطدام والحروب والفِتَن والاشتغال المُفضي إلى الدّمار وزعزعة الاستقرار، وحيثما بَلَغَ هذان الطرفان موقع القرار – سواء قرار الحكم أو قرار العلم – فلا يصنعان غير

الأزمات، ولا يعترف أحدهما بالآخر من جهة، كما لا يعترفان جميعاً بالنمط الأوسط، ويعملان على إفشال دوره الشرعي في الحياة، وهما امتدادان لزيمان للجنوح العالمي في اليهود والنصارى الذين جَلَبَ الشيطان عليهم بِخَيْلِهِ ورَجِلِه حتى وَصَفَ القرآن حالهما وهم يصدران الأحكام ضد بعضهما البعض بقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ [البقرة:١١٣].

إننا في منهجيتنا الإسلامية الشرعية منهجية المدارس المنطوية تحت شعار الأبوية ونمطها الأوسط تدعو الشعوب إلى تصحيح رُكَام الإفك المقنَّن والإفك المصنّع الذي جَعَلَهُ المغرضون المستثمرون هَدَفاً لإنجاحِ مشروع التكفير للمسلمين عند قومٍ، واللَّعن والإدانة للصحابة الأولين عند آخرين، ونَحْنُ بِمِثْل هذه الدعوة الهامة إنما نؤكد وجود طابور ثالث في داخل الأبنية الإسلامية الشرعية يخدم الشيطان والكفر والدجال، ويحقق لهؤلاء الثلاثة مُراده في الشعوب حيناً بإثارة أطراف الإفراط، وحيناً بإثارة أطراف التفريط، وقد عَهِدَ الشيطان مع عصاباته الإنسانية حماية هذين الاتجاهين في الأمة لأنهما وسيلته الاندفاعية، والدفع بهما إلى ساحة الحركة وامتلاك القرار حيث يتحقق بهما وبمخرجاتهما العلمية والعقدية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية منهج

الدّجل المسيس المؤدي إلى الفشل والإحباط والتفريق والصراع، لأنهما في كل الأحوال يحملان البديل المسيّس كفِكْر، ويحملان الأسلوب الماسخ كسلوك، فيؤديان بهذين المعادلين ما لا يؤديه الكُفْر الصريح، والكُفْر الصريح عقيدة الشيطان، وأما الفكْر المسيّس والسلوك الماسخ فهو البديل المتأسلم لإغواء المسلمين وإثارة الفتنة فيما بينهم ليخدموا عقيدة الكُفْر وهم لا يعلمون، وخدمة عقيدة الكفر أن ترى أقماع هذه المدرسة يتحملون تكفير الأولياء والعلماء والصحابة معتمدين على مخرجات الإفك المكتوب عنهم(1) ومتلهفين بِنَهَم

(1) تعتمد مدرسة التفريط المسيس على الكثير من الحكايات والروايات التي تنسب إلى الصوفية ويخدم طلابها وعلماؤها إخراجها على أنها عقيدة الصوفية وأفكارهم وديانتهم، وهي مجرد حكايات وقصص منها ما كتب بأقلام التلاميذ والمريدين الواقعين تحت تأثير التنافس المريب الغريب فيما بينهم، وحيناً يكون منها ما كتبه بعض المغرضين الهواة للتشويش بين المسلمين، وهذا أمر معلوم ليس في حكايات الأولياء فقط، وإنما في أحاديث الرسولﷺ وأخبار صحابته، والدس على العلماء والصالحين في المرقومات أمر معلوم وشائع، بل صارت مدارس القبض والنقض والإفراط والتفريط تكذب بكل ما ينسب إلى بعض العلماء والمحدثين والحفاظ متى ما كان حُجَّة عليهم، وينفون علاقته بفلان أو أن يكون من تأليف فلان وإنما دُسَّ عليه لنفي التهمة عنهم، والصوفية مدرسة حملت حواراً بين الإفراط والتفريط والاعتدال مثلها مثل أي مدرسة في الإسلام وليست

وشَغَف عن البحث الدؤوب لما يثبت كُفْر الصوفية، أو يثير الشبهات حولهم سواء كانوا من السَّلَف الماضين أو من العلماء المعاصرين، فالمسألة لا رجوع عنها ولا هوادة فيها، مع العِلْم أنَّ الصوفية المعاصرة والسلفية المعاصرة وكل

بريئة عن الغلو المفرط ولا الجفاء المفرط؛ ولكنها تبرز ناصعة جلية في منهج الاعتدال.. منهج النمط الأوسط.. منهج السلامة.

وكم لهذا النمط الشرعي من فضائل إلا أن مدارس القبض والنقض لا يعنيها الاعتدال، فالاعتدال في مدارس أهل البيت وفي المذهبية وفي الصوفية هو الحق الجلي، وأهله حملة الأمانات الشرعية في كل عصر وزمان، وفي الاعتراف بهم واحترامه كشف حقيقي للمؤامرة التي خطّط لها الأبالسة للفت نظر الشعوب الغافلة عن أهل الديانة والأمانة والولاية، ولهذا قَصَد الأبالسة التضحية بمدارس الاعتدال كلها وإبراز طرفي الإفراط والتفريط بقيادة المعركة العقدية لتؤتي ثمارها المرجوة في الأمة وقد تحقق لهم ما يريدون ورضي عنهم الشيطان كل الرضا ولم ولن يستطيع أحد أن يكتشف خطورة ما فعلوا إلا إذا عاد بروية إلى أحاديث من لا ينطق عن الهوى ﷺ وهو يتكلم ﷺ عن فقه التحولات وعلامات الساعة وعن موقع مدارس الإفراط والتفريط ومدارس القبض والنقض وعن توسيد الأمر إلى غير أهله، هذا العلم وحده كفيل بكشف المؤامرة الخطيرة.. مؤامرة الشيطان المستمر، ولكن من الذي يدرس هذا ومن الذي يعيه وقد كشف سره وبرز إلى الواقع أمره بما هيأه الله من رباعية الأركان، وإبراز موقع الركن الرابع وهو فقه التحولات وسنة المواقف.

المجموعات المتنازعة في الساحة لا تتجاوز تفسير من لا ينطق عن الهوى ﷺ عندما نصَّ على غثائية الجميع من خلال وَصْف مراحل التحول أو (مسمى فقه التحولات) وقال: «أنتم يومئذٍ غثاء كغثاء السيل»[1] فالصوفيون بما لديهم من مخرجات طرفي الإفراط والتفريط غثاء، والسلفيون بما لديهم من قبض ونقض وتسييس وتدنيس غثاء، وبقية الأطراف الساكنة والمتحركة غثاء لأنهم أبطال على بعضهم البعض وغيورون ضد بعضهم البعض، ولكنهم يعملون جميعاً وبإخلاص لخدمة المستثمر والمستعمر، ويحققون له الأرباح معاً في سوق العَرْضِ والطَّلَب، وخذ لذلك مثلاً:

تنتشر البنوك الربوية الحرام في أقدس بلاد الله تعالى، ويتزاحم العاملون فيها من كل نموذج إسلامي وإعلامي ملتزمين للوقت والخدمة وللأنظمة الداخلية للمصارف الحرام، وإذا ما حضر وقت الصلاة الواجبة خَرَج كلهم ليؤدي صلاته مع من يناسبه من المجموعات في المذهب والفكرة، ويحتَدِم الخلاف حول صحَّة الصلاة وبطلانها خَلْف الموظف الصوفي وحول سلامة عقيدته ومصيره، وتطول المناقشات والمنافسات في الردهات والغُرَف والمكاتب، ويتبرأ كلٌّ من

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٥/ ٣٨) وأحمد في المسند (٦/ ١٦٥) من حديث ثوبان وهو حديث صحيح.

الآخر ويقاطعه في الله، ولكن هؤلاء الأغبياء جميعاً لا يختلفـون إطلاقـاً في تنفيـذ مهمة الوظائف الدنيوية الحرام التي يمارسونها بأسلوب يحترم اللوائح والقـوانين الربوية.

لقد صارت خدمة الحرام قاسماً مشتركاً بين المصلين - ويا للعجب- تحقيقـاً لما قالهﷺ: «سيأتي على الناس زمانٌ ما مِنْ بيتٍ إلا ودَخَلَهُ الرّبا، ومَـنْ لَمْ يَـدْخُلَ إليهِ دَخَل إليهِ غُبارُه»[1]، كما صارت السياسة المعاصرة في بعض الأنظمة والدول العربية والإسلامية قاسماً مشتركاً بين المتنازعين، فالسياسة تتّخذ لنفـسها متّجهـاً معيناً كالديمقراطية بِصَرف النظر عن سلامة المتَّجه أو عدم سلامته من الوجهـة الشرعية، لكن كافة الجماعات والفئات والأحزاب وحتى الأفراد يجب أن تكـون خدمتهم للمرحلة قاسماً مشتركاً من خلال المؤسسات إلا مؤسسة واحدة وهـي المساجد، والحوار الديني، فـالحوار الـديني في المـساجد وفي خارجهـا لـيس لـه حصانة ولا صيانة، وإنما هو محور الصراع وموقع الدمار بين المجموعات كلها.

وهل مِن متأملٍ لأسباب ذلـك، وهـل مـن متـدبر لخطـورة مـا وصـل إليـه المصلّون؟ لقد احتار الجميع في الفتن الساحقة الماحقة، ولا زالوا في حيرتهم ولن

---

(١) أخرجه النسائي في سننه (٧/ ٢٤٣) وابـن ماجـه في سـنـنه (٢/ ٧٦٥) وأحمـد في المسند (٢/ ٤٩٤).

يخرجوا منها على الإطلاق، إلا بشرط واحد: إعادة دراسة القرآن والسُنَّة من خلال فقه التحولات.

لقد اقشعر جلدي وانزعج خاطري وباطني وظاهري وأنا أشهد بعض المناظرات المعاصرة بين الصوفيين والسلفيين عبر شاشة التلفاز، وكم تمنيت أن لا يقبل صوفي مناظرة سلفي ليس خوفاً من كشف أوراق الصوفية كما يقولون[1] وإحراجهم بالكفر[2]، وإنما لأن كلا الطرفين يدورون في حلقة مفرغة من

(١) جمعنا في هذا الباب الهام مجموعة من الكتب الخاصة طبع أكثرها، منها (الإحاطة والاحتياط فيما أخبر عنهﷺ من الأشراط) و (بين يدي الدجال) و (كشف الأقنعة عن الوجوه الغثائية المقنعة) و (الزوبعة العاصفة شرح المنظومة الكاشفة) و (السقوف السياسية المنهارة) لم ينشر، و(المسلمون في مجتمعات الذلة بين سياسة الدجل وعبادة العجل) و (التليد والطارف شرح منظومة فقه التحولات وسنة المواقف) و (إحياء لغة الإسلام العالمية) وقد فرغنا أخيراً من (المواجهة السافرة لإدانة طرفي الإفراط والتفريط وتسييسهما بين المصلين في الرحلة المعاصرة) و رسالة (إنقاذ ما يمكن إنقاذه) وهذا الكتاب الذي نحن بصدده، ومن الله العون.

(٢) فالكفر والشرك تهمة مصنعة لا دليل عليها ولا أساس لوجودها في أمة محمدﷺ، وإنما هي مؤامرة الحلفاء على الخلفاء، وخذ مني الدليل الحق إن كنت من أهله، فقد روى ابن أبي شيبة في المصنف برقم ٣٨٩٠٣ حديثاً عن عبد الملك بن أبي سليمان

أساسها قائدها التحريش وليس البحث عن السلامة، والتحريش تحت أي مدلول كان إنما هو مِنْ عَمَل الشيطان وأعتقد أنَّ هذِهِ المناظرات هي نوعٌ متطورٌ من عمل الشيطان، ولا فائدة تُرْجى منها على الإطلاق في إصلاح الأمة.

إن المعالجة الحقيقية للأمر إنْ كانَ هناك من يرغب المعالجة وليس الإحراج أن تدرَّس علامات الساعة باعتبارها ركناً مِنْ أركان الدين، بل هي الركن الرابع بنصّ الحديث المعروف، ولا بأس من الالتزام بالصحيح دون غيره، لأن في الصحيح اجتماع الرأي على قاسم مشترك، ومن ثم ترتب القضايا والتحولات

قال: «سألت أبا جعفر: هل في هذه الأمة كفر؟ قال: لا أعلمه، ولا شرك، قال: قلت: فماذا؟ قال: بغي» ص٣٥ كتاب الفتن ج٢١ تحقيق محمد عوامة، ويؤيد ذلك ما روي أن علياً رضي الله عنه سئل عن أهل الجمل، قال: «قيل: أمشركون هم؟ قال: من الشرك فروا. قيل: منافقوهم. قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً. قيل: فما هم؟ قال: إخواننا بغوا علينا» كتاب الجمل، مصنف ابن أبي شيبة ٢١/ ٣٦٩.

ويؤيد هذا المعنى حديث رباح بن الحارث قال: «كنت إلى جانب عمار بن ياسر في صفين، وركبتي تمس ركبته، فقال رجل: كفر أهل الشام. فقال عمار: لا تقولوا ذلك نبينا ونبيهم واحد، وقبلتنا وقبلتهم واحدة، ولكنهم قوم مفتونون جاروا عن الحق فحق علينا أن نقاتلهم حتى يرجعوا إليه»، وفي رواية: «...لاتقولوا: كفر أهل الشام، ولكن قولوا: فسقوا ظلموا» رواه ابن أبي شيبة في المصنف، كتاب الجمل ٢١/ ٤٠٧.

المثبوتة على مواقعها من الحياة المعاصرة، هذا فيما يخص الحياة المعاصرة، ويرتب غيرها على ما يناسبها من التاريخ الإسلامي السابق وما يناسبها من التاريخ الإعلامي اللاحق، وبها يُعْرف الحق من الباطل، وبها أيضاً تظهر حقائق الإحراج لمن يجب إحراجه، وتظهر سلامة الأولياء والصالحين وحملة الميراث الشرعي لهذا الدين على ثبات وتمكين وحُسن يقين، وبها تُعْرَف حركة الأصابع الخفيَّة التي تعبث مِنْ تحتِ الأقبية لِنَسْف قواعد الديانة على رؤوس المسلمين.

إننا في هذا الصدد لم ننتظر حتى تأتي موافقة أحد بعينه على هذا المطلب، بل إننا ولله الحمد قد دفعتنا معركة الحياة ذاتها ونحن نخوضها في مواقع التأثير الإسلامي والإعلامي أنْ نبحث لنا ولغيرنا عن مخرج، فوجدنا المخرج، وأدركنا المدخل، وعرفنا بحمد الله تعالى وفضله تسلسل الديانة وتسلسل الخيانة، ولا مفر من تجاورهما معاً ومن غير فكاك ولا انفكاك، فكلا الضدين يعيشان معاً وعلى بساط واحد.

والإنسان المتعصّب هو الحامل لفيروس الضدية، وكلٌّ ميسر لما خُلِقَ له.

وكما جَعَل اللهُ لكل عبدٍ مَلَكاً يُلْهِمَهُ الخيرَ فقد جَعَلَ لهُ قريناً مِنَ الشياطينِ يوسوس له بالشر، والغَلَبَة لِمَن تهيأت لهُ أسبابُ هيمنته عليه بالأعمال والنيات وهذا هو ما يقرر في ظاهر الشريعة .

وأما ما يقرر في باطنها فالسوابق وما كُتِب في الأزل، وقد قالﷺ فيما يـروي عن ربه في الحديث القدسي: «يا عبادي: أنا خَلَقْـتُ الخـير والـشر، فطُـوبى لمـن جعلته مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر، وويل ثم ويل لمن جعلته مفتاحاً للشر مغلاقـاً للخير»[1]، وعلّمناﷺ أن نقول: «اللهم يا مَنْ وَفَّقَ أهـلَ الخـيرِ للخـيرِ وأعـانهم عليهِ: وفقنا اللهم للخير وأعنّا عليه» وما تـوفيقي إلا بـالله عليـه توكلـت وإليـه أنيب.

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (١/ ٨٦) من حديث أنس بن مالك قال: قـال رسـول اللهﷺ: «إن من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر، وإن من الناس مفاتيح للـشر مغـاليق للخير، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر عـلى يديه» وإسناده ضعيف، وله شاهد من حديث سهل أن رسول اللهﷺ قال: «إن هذا الخير خزائن، ولتلك الخزائن مفاتيح، فطوبى لعبد جعله الله مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر، وويل لعبد جعله الله مفتاحاً للشر مغلاقاً للخير» وسنده ضعيف.

العَود إلى إيجابيات المدرسة الأبوية ضرورة ملحَّة

لا شك أن المعركة الفاصلة بين الخير والشر في محيط الأرض تبدأ بمغالبة الهويات والانتماءات وتنتهي بها، فالانتماء بمعانيه العامة والخاصة هو محور المنازعة وسبب الاختلاف، وأولها عند الأخذ بمبدأ التدرّج الهرمي من الأعلى قضية التوحيد لله، وتجريد التوحيد عن شبهات الشك والشِّرك، فلا انتماء في الحقيقة إلا لله، فَمِنْهُ وإليهِ كل شيء، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٨].

ويدخل في معنى التوحيد بعد الإيمان بالله ﷻ: الانتماء للرسالة، ومنها الرسالة الخاتمة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، والانتماء للذات النبوية بالمحبة والاتباع وحسن الاقتداء والاهتداء وأداء الدور الواجب نحو هذا الولاء في الحياة الدنيا.

وتتدرَّج الولاءات والانتماءات بعد ذلك إلى انتماءات وولاءات خاصة في حياةِ الفردِ المسلم كالولاء الشرعي للوالدين والأرحام، وما يتعلق بهما من واجِبِ الصِّلة وبرّ الأرحام ولو بالسلام، وكذلك يتوسع مفهوم الولاء إلى الجيران والإخوان في الله وما بعد ذلك من حُسْنِ ارتباطٍ وانضباطٍ بين المسلم والمسلم في الحياة الاجتماعية بكافة مؤسساتها وأنماطها الدينية والدنيوية.

وربما كانَ الولاء العاطفي الشرعي ومدلول الانتماء من الزَّوجة للزَّوج ومن الزَّوج للزَّوجة نموذجٌ رائع من نماذج الانتماء المشروع لإقامة المجتمع الصغير ونجاحه في بناء مستقبل المجتمع الكبير بدءاً بالأسرة ونهاية بالمجتمع كله.

والمجتمع كله بمتناقضاته المتعددة يحتاج إلى ضابط ولاء وعاطفة انتماء وهو ما يتحقق بالقرار ومن يملكه في الواقع ويُمارس مِنْ خلاله وظائف الانتماءات وإنجاح نماذج الولاءات.

وحيثما كان الخلل في ضوابط الانتماء وشروط الولاء لدى حامل القرار سرى الخلل إلى الواقع ومن فيه، ونَخَرَ الفساد والإفساد رعاياه، ويكاد التسلسل الانتمائي للأسرة والقبيلة والمذهب والفكرة والدولة يسيطر على كافة شؤون الحياة الإنسانية والإسلامية، وربما صار مسؤولاً كل المسؤولية عن ظواهر السلوك وثمرات العلاقة بين الشعوب، كما هو ملاحَظ ومشاهَد.

إذن فما هو الضابط الشرعي العام لهذا الانتماء والولاء؟ إنه (التدين المشروع)، فَمَنْ لا دين له على الوجه السليم لا انتماء له على الوجه السليم، ومَنْ انحرف تديّنه انحرف ولاؤه وانتماؤه.

وللمنحرفين انتماء وولاء من نمط آخر، وهو أساس الانحراف ومادة الانجراف، ولهذا السبب الخطير قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا

﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥]، فالخَلْق للآدمية كان مسألة التزام بولاء وارتباط بمادة انتماء، وعليها مسؤوليات وتنتظرها محاسبات ومسائلات.

والشيطان الإبليسي مخلوقٌ مُتَمَرِّدٌ عَنِ الولاءِ، وسالبٌ لحقائق الانتماء، ويعمل لحساب نشاطه الإبليسي القائم على التمرُّد ونَقْضِ الولاءات ودمار الانتماءات، لأنَّ النقيض يحقّق للشيطان موقعاً في السيطرة على الفِطْرة والإنسان والأرض، ومتى ما تحقَّق النقض للولاء تحقق القبض في الانتماء، وحصل الاحتناك ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٦٢].

ومع كل نقضٍ وقبضٍ في المجتمعاتِ وأفكارها ودياناتها وعلاقاتها يكون المستفيد الأكبر من هذا التحول هو الشيطان ذاته، إذ لا يهمُّ الشيطان مَنْ يكون على قرار القبض والنقض، وإنما يهمه مَنْ يكونَ أحبولة له لتنفيذ مبدأي النقض والقبض في المجتمعات والقلوب، أو بمعنى آخر: لا يعتني الشيطان بمسألة العلم والعمل والأخلاق والنسب والحسب والقيم في حاصل قراره لأنه يعمل ضدها، إذن فلا يهمه أيضاً موقع القرار بهذه الشروط لأنها ليست من منهج حركته، وإنما يعنيه المتمردون عليها القادرون على انتهاك ضوابطها وتقنين ما يضادها في الحياة الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية والتعليمية والإعلامية الخ... وإن كانوا من أبناء هذه الرؤى والأفكار التقليدية،

فمتى ما نفَّذ المخلوق الآدمي منهج الشيطان وعَمِلَ مِنْ خلال موقعه الاجتماعي أو الشرعي أو الفكري على تبنّي سياسة القبض والنقض والتفريق والتحريش والأنانية وإقصاء الآخر وإثارة العواطف نحو الدمار العاطفي والجنسي والعرقي والحزبي والسياسي والقومي – بعلمٍ أو بغير علم – فهو جنديٌّ مخلصٌ للشيطان؛ وإنْ صلى وصامَ وعَبَدَ الله وأخلصَ وقامَ وابتعد عنِ الشبهة والحرام.

فالالتزام الشرعي بهذه المسائل ضرورة خاصة للسلامة في الدارين لدى الفرد المسلم لا يتخلى عنه في كافة أحواله، ولكنَّ الشيطان يستفيد من مواقفه ضد خصمه ومنافسه وتوجيه طموحاته ورغباته حتى يوقعه في برنامجه العالمي للتحريش، فيصير بذلك عضواً ملتزماً للشيطان في المواقف مع الغير، وملتزماً للرحمن في عباداته وبعض توجهاته ومفاهيمه الخاصة به، وهذا هو الولاء المشطور والانتماء المشترك المعروف بمبدأ (فرِّق تَسُد)، فالتفريق في العقل الواحد بين الانتماء والولاء لله بالعبادات، وللشيطان ببعض المعاملات يحقق الدمار ويصنع الفتح السلبي للعدوّ الغرار.

قال ﷻ: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ

خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾

[النساء:١٢٠].

والمؤمن رجّاعٌ توابٌ يستغفر، والشيطان يعلم ذلك، ويعلم أن المؤمن لا يستمر في الشر ولا يصر عليه، ولهذا فالبدائل من بني آدم جاهزة ومهيأة كل التهيئة، فمتى ما رجع واحد عن الباطل قام بديلاً عنه عشرة آخرون، وإذا سقط الفكر الإبليسي وانكشف أقام الشيطان عنه بديلاً جاهزاً يؤدي نفس النتيجة والدمار، ولكن بعقيدة وأسلوب علمي آخر، وهكذا...

وأهم ما في الأمر أنه يُعيد صياغة (الانتماء والولاء) مرَّة بعد مرَّة، في كل مرحلة يصل بفكر معين واتجاه محدد، وهكذا...

ألست ترى كيف سقطت ثوابت نظام هنا ونظام هناك، وكيف استطاع أتباع النظام أنفسهم من تغيير جلودهم وتسرّبهم مرة أخرى إلى مواقع القرار بلباس جديد وألسنة جديدة، ووقع الكثير في هذا المشروع دون أن يعلم أحد أنه مشروع الشيطان وحلمه الأزلي في الاحتناك، ولا مخرج ولا علاج البتة من هذه الأحبولة المتمرحلة إلا بأمر واحد لا ثاني له: ألا وهو اتهام النفس، والنظر إليها بعين الاحتقار، وعدم استتباعها في ما ترسمه من مواقف وتهيؤات وما تضعه

من شكوك وتهم وسوء ظـن مـع المعـادل الآخـر مـن النـاس حـسب مـراتبهم الشرعية.

والاتهام للنفس يجب أن يكـون ضـابطه الـشرعي تـذكر مواقـف صـاحب الرسالةﷺ الحريص على المخالِف قبلَ الموافق، والمتأني في الأخذ بالجريرة والظن حتى يكون لديه البرهان القاطع لإصدار الأحكام.

وإذا ما اجتمعت البراهين واتَّحَدَت فهنـاك أيـضاً ضـابط شرعـي آخـر هـو احتمال المعاذير للغير، حتى يمكن استجلابه إلى الحقِّ دونَ إثـارة انفعالـه وطبعـه الذاتي، وخاصة لنا نحن المسلمون المستظلون بشجرة التوحيد العظمى وأخـلاق النبوة المثلى.

إنَّ تخلينا في معركتنا الحياتية عن أخلاق النبوة وإهمالها في مواقع التعليمِ أدّى إلى انعدامها في الدعوة إلى الله واجتثاث مَنْ بَقِي من حَمَلَتها في المحيط الاجتماعـي لأنها تخالف الطباع والمعهود لدى الناس.

وقد اعتقد قوم لوط أنَّ سلوكهم الشاذ واقـع اجتماعـي صـحيح وأن دعـوة نبيهم علة من علل الطهارة والتسامي في الأخلاق، ولهذا وصفهم اللهﷻ بقولـه:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل:٥٦].

وهل يُعقل أن تكون القيم والآداب والضوابط منبوذة عند الإنسان وهي من عند خالقه ورازقه ومكوِّنه؟ والقرآن يؤكد حصول ذلك في مجتمعات الغي وتغلب العادات حتى يحكم مجتمع كامل على نبي مرسل بالترحيل والإخراج من وطنه لأنه يدعو إلى السمو في الأخلاق ويعيب الفاحشة في الواقع الموحل.

وإذا كان القياس بين الأمة المرحومة وبين قوم لوط منعدماً من أساسه فإن النسبية في قبول الشر والعمل على تحقيقه وتظافر العقلاء من حملة قرار العلم والحكم والثقافة والإعلام والتربية والتعليم في عصرنا على التغافل المتعمد عن الفضائل والقيم التي دعانا إليها الإسلام في تربية الناشئة ومحاولة بترها أو تجاوزها أو إهمال العمل بها ؛ إن كل ذلك يؤكد استتباع الأمة المرحومة لأدواء الأمم السابقة ولكن ليس (على المكشوف)، وإنما بأسلوب التدريج والتسييس والاستغفال والمداراة حتى يتحقق فيهم على المدى ما تحقق في غيرهم من السابقين من الوهن والفساد وعبادة الغرائز والشهوات.

إن صرخة القرآن في المرحلة الإسلامية صرخة مدوية كشفت لشعوب الملة تاريخ الانحرافات وما ترتب عليها من دمار جماعي في العالم الإنساني ولم يعد بعد هذه الصرخة إلا الانتباه والتيقظ لكل من حمل القرآن الشريف وأدرك عظمة الرسالة التي جاء بها سيد الخليقة ﷺ.

والذين حملوا القرآن الشريف وأدركوا عظمة الرسالة مهمتهم في العالم الإنساني ثقيلة ثقل القرآن ذاته، وعليهم مسؤوليات في تطبيقه والعمل به أكثر من مسؤولية حفظه على الألسن وطبعه على المصاحف، ولأنه الحجة الدامغة على الأمم السالفة، فلا مجال لعلو فكر ذاتي أو نهج شرقي أو غربي عليه وعلى أتباعه الصادقين سواء في مسألة الديانة والتدين أو في مسائل العلوم الخاصة بالاقتصاد والسياسة والاجتماع والتربية والتعليم والإعلام وتأسيس ثوابت الحضارة.

فالقرآن وما تفرع عنه مرجعية الانطلاق الواعي للتعامل مع كافة شؤون الحياتين، لأنه ـ أي: القرآن ـ هو الدستور الناطق لحضارة الحياة المعاصرة، كما أنه الدستور المنظم سلوك الشعوب في علاقتها الأخيرة بالعقائد والمعاملات والجنايات والمواريث والعبادات، وهلم جرا... قال ﷺ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨].

لكنا نحن المسلمون – قادة وعلماء – فرطنا في كل شيء جاء به القرآن، وضعفت قوابلنا وقلوبنا أن نصمد بها أمام زوبعات الإعلام والأزلام والأقلام والأفلام، وارتعدت فرائصنا بعيد الغزو الاستعماري والاستثماري أمام صور الدجل وبهرجة الدجاجلة، فاستغنينا عن القرآن في كافة شؤون الحياة المادية

وحاصرناه وحصرناه في الشؤون التعبدية والعقائدية على صفة من صفات التزاحم والتحدي بيننا داخل خيمة الديانة والتدين.

ولم تستطع المدارس الحزبية ولا الفئوية ولا مواقع القرار الحكومي ولا المؤسسات الشعبية والرسمية وشبه الرسمية أن تفقه عالمية القرآن وعالمية لغته التي يخاطب بها العالم الإنساني بقدر ما فهمت القرآن تلاوة وحفظاً واستدلالاً لفرعيات المسائل الشرعية فظلَّ القرآن يدور في محور الإقليمية والقومية والحزبية والفئوية بدوران حملته الغارقين في دوامة التسييس العالمي.

ولعلهم يعذرون من حيثيات معينة ومن أهمها كونهم لا يدركون من الأمر غير ما درسوه في محاضن الحياة التعليمية الممنهجة، وما تلقوه من مشايخ التمرحل الفكري وشيوخ الهندسة العلمية في الواقع المؤدلج والمدبلج القهري والقسري.

أما من حيثيات أخرى فلا عذر لهم ولا حجة معهم، والقرآن يهان تطبيقاً ووعياً ويُتجاوز تربيةً ودعوةً ومنهجيةً شرعيةً، ويتآمر الأعداء داخل أقبية الواقع المتناقض لنقض عرى القرآن واستبداله بـ(الفرقان الحق) المصنّع[1] تحت سمع

---

(١) الفرقان الحق: تجميع نص كاذب أطلق عليه هذا الاسم ووزع في بعض البلاد، تبنته بعض الجهات الكافرة وأرادت به الفتنة في الأجيال الإعلامية للأسف.

وبصر الأبالسة المتهالكين في الغي والمال والابتذال، المشغولين عن نصرة التنزيل وعن تربية الجيل، بتحقيق مطالب رجال المال والأعمال، في سوق الأسهم وبيوت القمار وغسيل الأموال.

أليست هذه نكبة في عالمنا المعاصر؟ بلى، ولكنها لا تقرأ في مخرجات المرحلة، ولا يدرك مداها خبراء الكوارث، حتى من المنسوبين للإسلام نفسه، لأن الإسلام قد صار غريباً بين أهله ولم تزل طقوس من الديانة تمارس في الواقع المكدود والقائمون اليوم على قرار الإسلام هم ممن لا يحسنون الحديث عن أنفسهم وتاريخ شعوبهم وعلمائهم وسلسلة أسانيدهم فضلاً عن حديثهم عن الإسلام ومخرجاته في الشعوب، وهم أيضاً لا يبحثون عمن يعرِّفهم ما غاب عنهم أو خفي في سراديب التحول والتمول، وإنما هم يأبون الإعادة والنظر في جذور التاريخ خشية الإفلاس وانكشاف الأوراق، فما كان وجودهم على هرم التأثير إلا بمساعدة القارئين لتاريخ الأبوة على مراد الشيطان.

وللشيطان قراءات مستجدة تطمس الأبوة وحامليها، وتقيم النكير على المتشبثين بالماضي في سكرة الحاضر واندفاعه، وما كان الحاضر بما فيه إلا سلسلة من مؤامرة دُبِّرَت بليل لاحتواء القرار وفرض ضرائب الغذاء والهواء والماء مقابل نسبة من عوامل الاستقرار، سميت بادئ ذي بدء بالاستعمار، ثم آلت إلى

الاستهتار، ثم تحول الجميع إلى الاستثمار في كل شيء، وفي مقدمة الاستثمارات: الديانة والتدين، وهي ما عبَّر عنه من لا ينطق عن الهوى ﷺ بقوله: «إذا وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله»(١).

ولربما استشاط البعض من هذا التعليل لأنه يخالف الواقع المرسوم، وهم قد ملأت آذانهم آيات الشكر والثناء والعرفان من فقهاء القصعة الميامين، وقد بذلوا كل جهدهم في منح المصلين حرية العبادة وسلامة الاعتقاد وأمان الحركة دون اعتراض لهم أو عليهم، فلماذا يصر فقهاء التحولات على إخراج الواقع وتشويش العلاقة بين حملة القرار والشعوب؟ ولربما فسر لهم مهندسو المواقف هذه الظاهرة بأنها رغبة منا في إعادة التاريخ لآل البيت أو أنها أحلام اليقظة بامتلاك قرارها أو البحث عنه، أو أن يفسر الموقف في أسوأ الأحوال أنه مجرد فقدان لمصالح محددة تدفع المتجرد عنها أن يقيم النكير على الواقع ومخرجاته، وهذا ما تعاني منه كافة المواقع للقرار المعاصر، ويرون من وجهة نظر المرحلة أن يعترض المعترض ضمن إطار مشروع حسب مخرجات القانون الذي يكفل الرأي والرأي الآخر أن يطرح ويناقش فيما يسمى بحرية التعبير.

---

(١) أخرجه البخري في صحيحه (١/ ٨٨ فتح) وأحمد في المسند (٢/ ٣٦١) من حديث أبي هريرة.

والحقيقة التي نحن بصددها لا علاقة لها بهذا الفهم المتداول، ولا علاقة لها بتعليلاته، لأنها لا تناقش أحداً في سلطان ولا في قرار اختلف عليه أو اعترض من أجل امتلاكه، فالقرار حيثما كان وجب علينا السمع والطاعة فيما تجب الطاعة له، والمناصحة فيما تجب فيه المناصحة، والمشاركة فيما تصح فيه المشاركة، ولا يجوز لنا الخروج عن القرار إلا إذا رأينا كفراً بواحاً لنا فيه من الله حجّة وبرهان، والخروج عند أهل النمط الأوسط و(بقية السيف وسادة الصُلح الواعي) ليس كخروج الآخرين من حملة السلاح وعشاق الشهيق والزفير والصياح، لأن مثل هذا لا يعالج أمراً بقدر ما يؤزم المواقف وإن عالج أمراً ما في مرحلة ما لا يمكن به استمرار المعالجات وتحقيق المطالب في كل مرحلة وزمن، لأنه مشروع إثارة وتحريش وليس مشروع استقرار وأمان.

ومشروع التحريش مدخل واسع للشيطان في الإنسانية كلها كي يحقق دمارها الموعود، وبأيدي أبنائها المخلصين، وهذا ما تعاني منه الشعوب اليوم ولا زالت في مساراته تتدافع أو قل: في مسيراته تتتابع.

والأزمَّة كلها بيد الشيطان ووكلائه، ولكن هذه اللغة التي نتحدث بها عن هذا الأمر الشائك لا يفهمها أكلة القصعة ولا فقهاؤها ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا

يَشۡعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ
يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ
رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون:٥٤-٦١].

إقامة الدليل على فساد الأقاويل المتبادلة بين أهل الأباطيل

مهمتنا آل البيت ـ ونحن إن شاء الله دعاة السلامة والنمط الأوسط وبقية السيف وسادة الصُلح الواعي وسفن النجاة والثِّقَل الأصغر وَمَنْ تَبِعَهُم بإحسان ـ أن نؤيد الحق حيثما كان وننفي الباطل وندمغه أينما كان وفي أي وقت كان، وليس لنا حجة في هذا العمل غير من نلنا منهم هذه الوصوف الإيمانية العالية بدءاً بالحبيب الأكرم والنبي الأفخمﷺ، ونهاية بالأئمة الخلفاء الذين عليهم المعول بعد اللهﷻ في الجهر والخفاء، ومن أخذ عنهم بشروط الاهتداء والاقتداء، فهذه السلسلة المباركة ذاتها ووحدها هي الحاملة صفة الالتزام الشرعي بأدب الوراثة، كما التزمت بأدب المعاملة مع من يستحق ومع من لا يستحق، وهم الأئمة العدول الذين سبقت الإشارة أنهم المعنيون بالحديث بحمل هذا الدين.

وأما غيرهم من أتباعهم وأشياعهم وبعض المنتمين لهم بالولاء المجرَّد عن أدبهم وسلوكهم فلا ننفي عنهم صلة العلاقة ولا ننفي عنهم شرف المحبة؛ ولكننا ننفي عنهم عند تجاوزهم حدود الأدب الشرعي وشرف الاهتداء الاقتداء بالدعاة المهتدين.

ونحصر الأقاويل الصادرة عنهم باسمنا آل البيت وخوفهم علينا وشوقهم إلينا في دائرة طباعهم وفهومهم وعواطفهم الجياشة بالعداوة المطلقة لغيرنا مقابل حبهم لنا ومدحهم المفرط لنا ومقابل لعنهم وسبهم وشتمهم في جهة التفريط لغيرنا.

وبهذا يكونون قد عبروا عن ضيق فهومهم وضعف نفسياتهم وهوى ذاتهم ورغبات شهواتهم ولم يعبروا فيما قالوه شططاً عن إمام من أئمة آل البيت ولا عن عالم من علمائهم ولا حتى عن منهجهم الشرعي الذي يدين آل البيت مولاهم به.

وبهذا تقف كافة الفهوم والتفسيرات والتعليلات والتعليقات التي تزخر بها كتب أولئك ومنابرهم ومجالسهم ونشراتهم وخلواتهم وما نسبوه من هنا أو من هناك لأئمة آل البيت من باب حسن الظن فيهم وسوء الظن في غيرهم، أو من باب النصرة لهم ولو بالإفك والكذب المدلل على حقيقة ظلم الغير لهم، أو غير ذلك، كل هذا يتحول إلى سوء فهم لدى قوم و(فقه مغالطة) لدى آخرين لا تتجاوز ألسنة وقلوب وعقول قائليها، وهم المسؤولون عنها في الدنيا والآخرة، وهم المسؤولون أيضاً عن الانحرافات التي وقع فيها رعيل من أبناء وأجيال آل البيت الأغرار وأشباههم الذين لا يفهمون من (مدرسة آل البيت) غير الولاء

من الغير والتكرمة لـذواتهم والمطالبـة بـالحقوق المفقـودة والمـسلوبة عـنهم كـما تتحدث عنها مدارس الصراع، مع أن ما لهم عند الناس من فـروض وعـروض، ربما لا تتجاوز عند النظر فيها بعمق مسألة النفوس والأهواء وما يستغله البعض أو التباهي والفخر والعظمة والزهو والكبرياء والحظوظ الدنيوية وإشـعال لنـار الصراع بين الفريقين المتنازعين ولا غير ذلك.

إننا لسنا في موقف المدافعين عن القتلة والفجرة والظلمة الذين تتكئ ألـسنة المتحذلقين من سائر المجموعات على إدانتهم ولعنهم وشتمهم باعتبـار ظلمهـم لآل البيت قديماً أو حديثاً، فتلك مسألة قد تجاوزت حدها ولم تعد مثمـرة البيـان ولا الاستبيان، وتبدأ بالعاطفة وتنتهي بالعاصفة ولا جديد أبداً.

نحن في حاجة إلى صرف نظرنا عن الركـام المتـداول والمتبـادل إلى النظـر في سلوك القوم ودقائق مواقفهم، فالمنطلق الذي انطلقوه منذ عهد الرسـالة بـما فيـه من تناقض واختلاف رأي كان منطلق الأخلاق لا منطلق انعدامها، وأما الـذين يدافعون عنهم بحُبٍّ أو تسييس فهم منطلقون من بواعـث وظـروف جَـرَت في وعاء الزمان والمكان، وشتان بين الحالين والموقفين.

شتان بينما يصفه الأشياع والأقماع عن علاقة الإمام علي رضي الله عنه وكرَّم وجهه بالخليفة الأول أبي بكر الصديق، وعما يصفه الإمام علي رضي الله عنه ويتحدث به.

ففي البداية والنهاية (٦/ ٣١٤، ٣١٥) عن ابن عمر رضي الله عنه قال: «لما برز أبو بكر الصديق إلى (ذي القلصة) واستوى على راحلته أخذ علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: أقول لك ما قال رسول الله ﷺ يوم أُحُد: لمّ سيفك ولا تفجعنا بنفسك، وارجع إلى المدينة، فوالله لئن فجعنا بك لا يكون للإسلام نظام أبداً» فَرَجِع رضي الله عنه.

فلو كان عليٌّ رضي الله عنه – على ما يقول أهل الأضاليل والأقاويل – لم ينشرح صدره لأبي بكر ورآه ناهباً الخلافة عنه لما نصحه بالبقاء في المدينة، بل ربما شجعه على الخروج لعله يستريح منه ويصفو له الجو، ولكن أعاذه الله من ذلك، فالإمام عليٌّ أكبر من مثل هذا التصور، وإنما هذا جرى بأقماع التسييس والتدنيس الذين يتآمرون من داخل أقبية الحكم أو من فوق منابر العلم لأنهم ليسوا خُلفاء، وإنما هم أقرب إلى الخُلفاء على أمر مراد.

وفي سقيفة بني ساعدة لم يكن في خلد أحد من المهاجرين والأنصار ما يـدور اليوم وقبل اليوم من التعليلات والتصورات التي بناها ركام الوعي المتآمر حتـى جعلوا السقيفة صورة من صور الخيانة ونكث العهود.

ولعل الصورة في ذاتها عشية وفاتهﷺ هي أنصع بكثير من الركام السوداوي الذي تتهدج به ألفاظ الحريصين على أهل البيت ومـوقعهم مـن الـسلطان، فـآل البيت منذ اللحظة الأولى وهم جزء من القرار والاستقرار سـواء كـانوا في قمـة الحكم أو في رعايا المعرفة والعلم..

وهـذا هـو رأي الـشرع، وأمـا رغبـة الطبـع فلابـد أن تعـالج بـأمر وآخـر، وعلاجها عند سـفن النجـاة غـير علاجهـا عنـد أقـماع الغـرق، وأقـماع الغـرق مضطرون إلى تبرير الشر ودعم مواقفه لأنه منهج حياتهم، أما سفن النجـاة فهـم ينظرون إلى الأمور من وجهة نظر الإسلام ذاته، ويثقون بـما نـص عليـه القـرآن والسُنَّة من توثيق الرجال وثباتهم، وأن الذين بايعوا رسول اللهﷺ تحت الشجرة لن يستعيضوا عن البيعة ورضا الله بالسلطان والحكم لمجـرد المنافـسة والمغالبـة، وإنما هذا يكون في غيرهم من حملة الأقلام والأفلام والأزلام من عبدة العاطفـة المجردة عن الأدب الشرعي والسلوك النبوي المرعي.

إن آل البيت هم الأمناء على النصوص وأمناء على المواقف، وبمواقفهم وأمانتهم حفظ الإسلام على عهد الخلافة الراشدة كلها، ولولا وقوف آل البيت إلى جانب الخلافة الراشدة لكان الأمر على غير ما سار واستقر.

وبتنازل الحسن وهو مثال آل البيت انتهى دور الخلافة الشرعي وبدأ ما سمّاه النبيﷺ بـ(المُلك العَضوض).

وكأني بالمعنى المفهوم من هذا التحديد الشرعي قائماً إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً، ويؤيد هذا المعنى ما قاله الإمام الحسن في خطبته التي قالها عشية تنازله عن القرار: «إن الله هداكم بأولنا، وحقن دماءكم بآخرنا».

فقضية حقن الدماء على يد رجل الخلافة المنصوص عليها مسألة ذات أهمية، ولا يقلّ أهمية عنها موقف الحسين رضي الله عنه عندما أقام الحجّة على المحبين والمبغضين فخَرَجَ لتحقيق ما يُصلِح الله به الأمة ويجمع به الكلمة ويدك به الفتنة، فقُتِلَ شهيداً بين تخاذل المحبين وبغي الباغين، فكان درساً واعياً لمدرسة الصُلح وبقية السيف.. فهل من مدّكر؟

إن الضيق الطبعي الغالب على النفوس يأبى قبول الحق من أصله، ويبرر الموقف الناتج عن هذا الضيق بما يناسبه من التبريرات، والتبريرات لا علاقة لها بالحقيقة المرجوة والمطلوبة من أمر تفسير الأحوال والمواقف، والأحوال

والمواقف من وجهة نظر أئمة آل البيت لا ترتبط بالأحداث ومخرجاتها، ولا بالرأي الشخصي للفرد ذاته، وإنما ترتبط بالمواقف الأدبية الشرعية التي تليق بالأئمة والأتباع، واللياقة الأدبية ليست تنازلاً ولا رضاً بالظلم وسكوتاً عنه، وإنما هي سمو وشرف وحسن اهتداء واقتداء لما يحفظ شرف بيضة الإسلام.

وقد فعل ذلك أئمة آل البيت رضي الله عنهم وأرضاهم، وأداروا المجتمع الأول وساهموا في تثبيته مع أن قرار الحكم كان مع غيرهم، بل صارت مواقفهم حجة يرجع إليها أئمة آل البيت أنفسهم، وهذا كتاب نهج البلاغة (ص٣٦٦/ ٣٣٧) ط. بيروت تحقيق صبحي الصالح يروي مقولة الإمام علي رضي الله عنه عندما تعينت خلافته بعد مقتل عثمان رضي الله عنه «إنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإذا اجتمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك لله رضاً، فإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردّوه إلى ما خرج منه فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى»، وقال أيضاً رضي الله عنه: «إنكم بايعتموني على ما بويع عليه من كان قبلي وإنما الخيار للناس قبل أن يبايعوا فإذا بايعوا فلا خيار لهم»[1].

(١) ناسخ التواريخ، الجزء ٣.

إذن فالموقف الناشئ لدى العديد من المتقولين على الخلافة موقف طبعي ذاتي لا علاقة له بالاقتداء والاهتداء المقتبس من موقف الإمام علي وآل بيته، وأما الإمام علي فقد كان شجاعاً مع نفسه ومع غيره وتحمل مسؤولياته المناطة به في خدمة الأمة والخلافة دون تردد ولا جبانة، بل قام بالنيابة للخلافة على عهد الخليفة الثاني عدة مرات.

١- أنابه الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المدينة سنة ١٤هـ عندما أراد غزو العراق بنفسه.

٢- أنابه أيضاً رضي الله عنه سنة ١٥ عند شخوصه لقتال الروم.

٣- أنابه أيضاً رضي الله عنه سنة ١٥هـ عند خروجه إلى أيله.

٤- أنابه رضي الله عنه سنة ١٧هـ لما استمد أهل الشام عمر رضي الله عنه على أهل فلسطين، فشخص عمر رضي الله عنه إلى الشام وكان عليّ رضي الله عنه هو المستخلف على المدينة.

وهذه الاستدلالات التي نوثقها هنا لا نريد بها كبح جماح المحبين أو إسكات أصواتهم فيما هم مصرون عليه وذاهبون إليه، وإنما نحن بصدد تثبيت موقف الأئمة أنفسهم وهم قدوة المحبين وغير المحبين، لإقامة حجة العدل الشرعي الذي كانوا عليه من جهة، ولإبراز مواقع الإفراط لدى أشباهنا وأمثالنا

ممن أخذت بهم وقائع الأحداث نحو الجنوح بعيداً عن التوسط والاعتدال في الحكم وتقرير المواقف، وأبرزت مواقع التفريط التي وقع فيها أقماع الفتن من المبغضين آل البيت ممن تفجرت الأوضاع على أيديهم باسم الديانة والتدين.

فالخلاص من طرف الإفراط والتفريط مكسب عظيم وإعادة حقيقة للنموذج الأمثل ولكن الشيطان لا يروق له هذا الموقف ولا يتبناه، بل يتبنى طرفي الإفراط والتفريط في كل عصر ومرحلة ليحقق بها غرض القاعدة القائلة: «لكل فعل ردّة فعل»، وهذه قاعدة مادية بحتة لا علاقة لها بالأخلاق والقيم، ومع هذا وذاك فهي أصل من أصول الحركة في الحياة العامة والخاصة، ولكنا هنا نقرر موقف رجال الصفوة الأبرار لا موقف الانفعال الناتج عن الحوادث وتقلبات الليل والنهار.

لقد صار من الضرورة بمكان أن نأخذ على يد الظالم فنمنعه من ظلمه ونحجزه عن الشر الذي يوقعه في سوء أعماله وتصوراته ونعيده إلى موقف الحق وشرف الالتزام به حيث تتحقق النصرة المرجوّة وتبرز المعاني المجلوة من قولهﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. قالوا: يا رسول الله: هذا ننصره مظلوماً،

فكيف ننصره ظالماً؟ قال: تأخذ فوق يديه»[1]، فالمحبون الذين أفرطـوا في الحـب حتى خرج أمرهم عن دائرة السيطرة على العواطف يجب أن يكبحوا جماع الحـب الطبعي ليعود إلى مقـاييس الـشرع، والمبغـضون الـذين فرطـوا في زمـام التعلـق والحُب يجب عليهم أن يستمسكوا بحبل الله المتين فيخففوا عـن أنفـسهم وطـأة البغضاء والحسد لعباده الصالحين ليسلموا بالشرع ذاته من سوء الظن في تفـسير الحوادث ومجريات الأحوال، والرابح من كل وجوه ذلك العائد إلى الله من سوء تصوره مهما كلف الأمر وكانت النتيجة.

فالخلفاء الراشدون قد رأوا مواقف المفرطين لما رأوا منهم الاندفاع المقيـت، وعلموا أن الباعث لمـواقفهم القتاليـة مجـرد النفـوس وحُـب الـسلطة والأنانيـة وكانت هذه المواقف القتالية مدعومة بفهومهم المستنبطة من النصوص الـشرعية ضد حملة قرار الخلافة المشروعة من عند الله وبإجماع الأمـة، وكـان هـذا التقـدير لدى الخلفاء قائماً على تفويت الفرصة التي أراد الشيطان بها هلاك الفريقين معـاً، فآثروا سلامة الفريقين من الهلاك وتجاوزوا عقدة الامـتلاك لمـن لا يرعـوي عـن

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥/ ١٢٤ فـتح) والترمـذي في الـسنن (٣/ ٣٥٦) وأحمد في المـسند (٣/ ٩٩) مـن حـديث أنـس بـن مالـك وأخرجـه مـسلم في صـحيحه (٢/ ٤٣٠) والدارمي في الجامع (٢/ ٤٠١) من حديث جابر.

إسالة الدماء في سبيلها فيتركوا لهم قيادة الدنيا وسلطان الحكم، ونظروا إلى ما عند الله ﷻ وحافظوا على سلطان العلم والتربية وبناء الأحوال والصفات الشرعية وهم على أنماط:

١- نمط أقام مبدأ الشورى وحفظ سلامة انتقال القرار من مرحلة النبوَّة إلى مرحلة الخلافة على الوجه الشرعي المدعوم بالنص: «الخلافة ثلاثون عاماً»(١).

٢- نمط جدير بالخلافة والحكم منذ بداية الأمر، ولكنها بأمر الله، صُرِفت إلى غيره فكان وزيراً ومستشاراً ومساعداً ناصحاً كالإمام عليٍّ رضي الله عنه.

٣- نمط الحامل لواء الخلافة والمتربع على عرشها بالإجماع، ولكنه تنازل عن القرار طلباً للاستقرار وسلامة الاستمرار، وأيده النص الشرعي في موقفه كالإمام الحسن.

---

(١) ورد الحديث بلفظ: «ثلاثون خلافة ونبوة، وثلاثون خلافة وملك، وثلاثون تجبر، ولا خير فيما وراء ذلك» حديث رقم ٣٠٩٠٤، كنز العمال: ١١/ ١٢٩ .

٤- نمط المخاطر بالذات لإقامة منهج الخلافة بعد تحمله أعباء بيعة الآلاف من المسلمين مع اختلاف الزمان والمكان، فكان الاستشهاد كالإمام الحسين.

وفي كل نمط من هذه الأنماط مدرسة إسلامية عظمى ترتبط بالمرحلة ومجرياتها وتبرز سلامة اتخاذ القرار المتخذ من الخليفة الموفق، ويبرز مقابل هذا موقف أهل التحريش المعتقدين نجاح خطتهم بتنازل الرجال عن مقاماتهم وانتصارهم بامتلاك القرار وخروجه من آل البيت الأطهار، وبرضا موقف من إمامهم الحسن رضي الله عنه.

وموقف الإمام الحسن كمثال اجتمعت فيه شروط السلامة مع القدرة على استخدام القرار وعدم التفريط فيه لا يعني انتقال الخلافة إلى الجهة الأخرى، وإنما يعني انقسام القرار إلى قسمين:

القسم الأول: بقاء الخلافة المنصوص عليها في الإمام الحسن ومدرسته المسماة بمدرسة النبوة، فهو الخليفة الخامس بنص الحديث: «الخلافة ثلاثون عاماً».

القسم الثاني: انتقال قرار الحكم والسلطان إلى الجهة الأخرى كمخرج من مخارج السلامة للأمة وليست لجدارة الآخذين لها، بل هو ما سماه الرسولﷺ

بالصُلح، «...وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين»[1]، والصلح هو وسيلة للخروج من الأزمة وتفادياً لآثارها ومخرجاتها السلبية.

فانقسم القرار الإسلامي منذ تلك اللحظة إلى: قرار حكم منعدم الشروط الكاملة بيد الطامعين في القرار بناء على صلح مشروع، وقرار علم بيد الخلفاء الراشدين المهديين.

ومن هذا المنطلق الشرعي تحولت الخلافة من مدلولها السياسي إلى المدلول العلمي الأبوي الذي استندت عليه مدرسة السلامة كأول تحول في مجرى القرار المشروع، وصار النص يلزم الأمة بالتمسك شرعاً بمواقف الخلفاء الراشدين المهديين، وهم حملة قرار السند الأبوي المتصل بالإمام الحسن ومن في دائرته من الموالين له: «عليكم بسُنتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي»[2].

وانتهت الخلافة المنصوصة شرعاً بتوقيع الإمام الحسن التنازل من حيث القرار وبقي القرار يحمل مسمى شرعياً جديداً هو (المُلك العَضوض)، وتبدأ مرحلة الملك العضوض بتوقيع الطرف الآخر على قرار التنازل وموافقته على حمل مسؤولية الحكم في الأمة.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

كما ألزم هذا النص كافة الشعوب إلى الالتزام بالثوابت والسمع والطاعة لحامل قرار الحُكم وإن كان مُلكاً عضوضاً، والاتباع والاقتداء والاهتداء لحامل قرار العلم ومن ارتبط بسلسلة أسانيدهم الموفقة، فقرار الحكم غطاء مرحلي ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨] أما قرار العلم فثابت شرعي مستديم ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [يوسف:٣٨]، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١]، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وأما السُّبُل فهي ما خرج عن دائرة الإسناد العلمي المشروع أو ما ارتبط بقرار المُلك العضوض ليغير سنن الحق في أهله أو في الأمة، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]، والملك العضوض مرحلة طويلة المدى بدأت بتنازل الإمام الحسن وانتهت بزوال الدولة العباسية، ولكنها رغم كونها مُلكاً عضوضاً في القرار فهي في محيط الشعوب تملك نسبة من السلامة وعوامل الاستقرار بخلفاء الهدى والرشد الذين لا يخلو منهم المجتمع، ولا يتخلى عنهم الصالحون المخبتون.

فصراطهم مستقيم ومعلوم، ولغيرهم في الواقع سبلٌ أخرى متشعبة ومتفرقة وتستقطب الكثير من الناس ما بين منتفع ومندفع وغافل وجاهل ومبتلى ومستحوذ عليه.

إن علاقتنا بمرحلة الملك العضوض من حيث القرار ترتبط بالنصوص التي عينها رسول الله ﷺ في تحديده للفتن وروّادها، أما من حيث قراءة الواقع كما هو فالمرحلة لم تخرج من دائرة فئة من المسلمين في قرارها العام، وخاصة أنها في نواح كثيرة أسهمت في بناء بعض مقومات العلم والمعرفة والحضارة، وكان لبعض رموزها إسهامات وبصمات حسنة في خدمة المجموع من الأمة والرعايا، ولبعضهم في علاقتهم الذاتية الظاهرة استقامة وعبادة ومحافظة على العبادات وشريف العادات .

والسوابق الأزلية في النجاة يوم القيامة لا تقف عند مسألة الاختلاف على القرار ولا على من يعمل لمجرد التنمية والاستقرار، وإنما النجاة مكفولة لمن مات وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والأمر كله بيد الله، فمن أراد له النجاة ولو كان في أتون الكفر والإلحاد نجا، ومن أراد له النار والعياذ بالله كبا ولو كان من أبناء الرسل الأطهار، وما نحن فيما ذهبنا إليه إلا راغبين في نشر

مبدأ السلامة من حيث علمنا، ونـسأل الله أن يرزقنـا العفـو والعافيـة والمعافـاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة.

النمط الأوسط بريء كل البراءة من تبعات الاحداث التاريخية المسيسة

إن قراءة التاريخ الإسلامي بعين الفقه الشرعي القائم على النص الموروث من فقه التحولات عن النمط الأوسط وما عبروا عنه في صحيح مقولاتهم خلال سير الأحداث وتقلباتها يؤكد بيقين أن كافة الانفعالات التي فجرت مواقف الصراع الطائفي والسياسي والقبلي وغيرها محصورة في مجموعتين متناقضتين في التصور والاستنتاج، وهما -أي: هاتان الطائفتان- المسؤولتان في كل الأحوال مسؤولية مباشرة عن الانهيارات والدماء والحروب.

وكان مبتدأ نشاط هاتين المجموعتين في العالم الإسلامي بعد مقتل سيدنا عمر رضي الله عنه، وقد سماه رسول الله ﷺ: (غلق الفتنة)، و(الباب الذي يُكْسَر)[1].

وقد فُتح باب التفريط منذ أن تآمر الأعداء المجتمعون سرا على قتل سيدنا عمر، وكانت تلك أول مؤامرة في تاريخ الاسلام من أعدائه التاريخيين، ولما تولى

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ٧٤٩ فتح) ومسلم في صحيحه (١/ ٧٢) وابن ماجه في السنن (٢/ ١٣٠٥) وأحمد في المسند (٥/ ٤٠٥) من حديث حذيفة بن اليمان.

سيدنا عثمان رضي الله عنه وانتشرت في الأمصار أمراؤه وأتباعه كان الأمر بـادئ ذي بدء على ما يرام حتى برزت بعض البطانـات التـي سـلكت بـالأمر مـسلك التسييس في التفريط دون علـم الخليفـة ودون رضـاه، ومـن خـلال الأحـداث الجارية في أخريات المرحلة بدأ الفريـق الحامـل لطـرف الإفـراط يـبرز في محـيط الحكم دون علم حامل القرار، كما بدأ الفريق الحامـل لطـرف التفـريط ينـشأ في الواقع المتناقض، ويجمع خيوط الانطلاق وأسـباب الاتـساع، حتـى بلـغ الأمـر منتهاه في اجتماع أصحاب الثورة ضد القرار ومشتبهاته، وتفاقم الأمر دون روية ولا تريث حتى انفجـر الموقـف بقتـل عـثمان رضي الله عنـه في ظـروف عـصيبة وغريبة رغم وجود كبار الصحابة والتابعين.. وكانتِ هذه هي المؤامرةَ الثانيـةَ في ضرب قرار القرآن والإسلام وإضعاف موقعه الهامّ تاريخياً؛ ولكنها في هذه المـرة على يد (المنافقين والأعراب) من داخل الخيمة الإسلامية ذاتها.

وتميزت هذه المرحلة بأمور منها:

١. سقوط القرار الإسلامي بشبهات التآمر بين طـرفي الإفـراط والتفـريط بعد تمادي الفتنة بينهما.

٢. اختلاف الصحابة بعد ذلك في مفهوم القرار واستحقاقه.

٣. تغلغل التسييس الدجالي الهالك في مجموعات الحركة والتأثير من المنافقين ولفيف الأعراب، حتى صار صوتهم مؤثراً في الواقع ومرجحاً للمواقف سلباً وإيجاباً.

وانتقل هذا الموقف إلى المرحلة اللاحقة بعُجَره وبُجَره، وهي مرحلة البيعة للإمام علي رضي الله عنه، وكانت مرحلة تمخَر بالتسييس الدجالي من كافة الأشكال والمجموعات ما عدا رجال النمط الأوسط، وفي مقدمتهم الإمام علي كرم الله وجهه.

ولم يسلم من هذا الخبط والخلط إلا من حفظهم الله بالحصانة الشرعية، وهم الصحابة رضي الله عنهم: خاصة من الذين رغبوا في تحجيم موقف أهل الإفراط والتفريط.. الذين اشتركوا في نقض قرار المرحلة السابقة.

وكان الموقف محتدِماً والانفجار منتظَراً.. ولهذا سعى فريق الإفراط والتفريط إلى الدفع بالأمور كي تخدم التوجُّه الدجاليَّ المنتصِر، وهو إثارة الفتنة والوقيعة بين القوم في غفلة من الأمور واختلاط المواقف.

واشتعلت الحرب في ظروفٍ غامضةٍ عند العقلاء وحَمَلَة القرار؛ ولكنها عند الفريق الآخر كانت موقوتة ومناسبةً ومؤديةً غرضَها الدجاليَّ الكبير.. وذهب فيها من ذهب وسَلِمَ مَن سَلِمَ.

وقد امتازت مدارس الإفراط والتفريط عن مدارس السلامة المنتمية إلى النمط الأوسط بما يلي:

١. الرغبة في الوصول إلى الحكم ولو على سبيل الخداع والكذب والتزوير.
٢. الجرأة على القتل والانتقام وافتعال المواقف المفضية إلى الفتن والحروب.
٣. الجرأة في الفتوى بما يصِم المخالف ولو بالكفر.
٤. تحريف النصوص وإعطائها مدلولاً مناسباً لموقف الإفراط أو التفريط.
٥. العمل المضاد بعنادٍ وتصميمٍ وعدم تنازلٍ أو مهادنةٍ في سبيل الامتلاك والسيطرة.
٦. تعميم فكرة الثأر للمقتول ولو على حساب التاريخ.
٧. سوء الظن في الأمة عموماً وفي الصالحين خصوصاً، والشك المتعمد في كل موقفٍ وتصرفٍ، وتفسير الوقائع والأحداث بما تُمليه التصورات النفسية الحاقدة والحاسدة، تحت مبررات التمحيصِ والتحقيقِ والقلقِ على الدين والعقيدةِ وشرفِ الإسلام.

كما امتازت مدارس النمط الأوسط بما يلي:

١. عدم الاشتغال بقضية الحكم والقرار إذا طرأ الاختلاف عليها والتنازع إلا من باب النصح والإصلاح.

٢. انعدام الجرأة على المشاركة في القتل أو الانتقام إلا دفاعاً عن النفس عند الضرورة.

٣. عدمُ التصدرِ للفتوى وصرفُها إلى الغير.

٤. تقديس النصوص الشرعية وعدم مخالفتها والالتزام بها ورد فيها رغبةً في حصول السلامة.

٥. العمل على تهدئة الأوضاع وجمع الكلمة ولو بالتنازل عن الحقوق الخاصة لإقامة الحقوق العامة والاعتماد على ما عند الله من الأجر والثواب في الآخرة.

٦. عدم الدعوة إلى الأخذ بثأر مقتوليهم إلا بإقامة شرع الله في القاتل وحده دون غيره، بحيث لا ينسحب الثار على من والىَ القاتلَ بنسبةٍ أو صحبةٍ عامةٍ؛ لقوله تعالى: (ولا تزر وازرةٌ وزرَ أخرى) إلا إذا كان شريكاً له في الفعل والاعتداء المباشر.

٧. الاستعاضة في ظروف الفتن والإثارة بنشر الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والسمع والطاعة ولو تولى الأمر عبد حبشي -كما ورد في الحديث[1] - مع المناصحة للحاكم والمحكوم.

وعند التأمل الواعي في مبادئ الفريقين نتعرف على موقع الشيطان من مبادئ الإفراط والتفريط.. تلك المبادئُ التي وصفها رسول الله ﷺ بـ(التحريش)، وهي سياسة العمل العالمي في الشعوب: (فرق تسد) ، وقال عنها في الحديث الصحيح: «إن الشيطان أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب؛ ولكن في التحريش بينهم»[2] .

٨. حسن الظن بالأمة عموماً وبالصالحين خصوصاً، وإشاعة هذا المبدأ في التربية والتعليم والعلاقات، وتحديد مفهوم سوء الظن بما يناسبه من شروط الأخذ بالحيطة والحذر، دون الإثارة والفتنة والتشهير وإصدار الأحكام المعلنة ضد الآخرين.

---

(١) تقدم تخريج الحديث عن العرباض بن سارية.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٥٣٦) والترمذي في السنن (٣/ ٢٢٢) وأحمد في المسند (٣/ ٣٨٤) من حديث جابر.

فالقاسم المشترك بين(الدجاجلة والدجّال) في العالم هو نشر سياسة التحريش والعيش عليها ومن أجلها، وهي السياسة التي يحاربها الإسلام ولا يتبناها ولا يدعو إليها، بل هي كما عبر عنها صلى الله عليه وآله وسلم: (دعوها فإنها مُنتنة)، ويضع الإسلام بديلاً عنها وعلاجاً لها: الحكمة والموعظة الحسنة، وإشاعة السلام وإزالة آثار الحقد والانتقام، والعيش في الحياة الدنيا بسلام، لاستحقاقِ الفاعلِ لذلك يوم القيامة دارَ السلام.

إن النمط الاوسط من رجال السلامة يرسمون مبادئ السلام والرحمة والمحبة ولو كانوا مظلومين في عالم الحياة، ليموتوا على الإسلام والديانة، وينتصروا لحقوقهم المسلوبة بين يدي الله، وخصوصاً إذا كان الظالمون في جنسهم وعقيدتهم من الذين يستدلون على الظلم بما يحرض الشعوب ضد أهل السلامة بتحريف المعاني والنصوص، ويركبونها شططاً ويبغونها عوجاً، والإسلام الحنيف يرسم السلامة في الدنيا بالصبر والتحمل والعفو والصفح بين المسلمين، ويعد الرضى وأعالي الجنان يوم الدين على ذلك ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠].

إن تقديرنا العالي لنمط السلامة في تاريخنا الإسلامي سيسهم في كل الأحوال على ترسيخ حسن الاقتداء والاهتداء والسير بهم على طريق

السلامة في الأمة، كما أن إدانتنا الواعية لنمط الإفـراط والتفـريط سـيجفف منابعهم، ويخفف حدة التوتر لدى المغرر بهم، والمستغفلين خلفهم بجـاهٍ أو طموحٍ أو عقدةٍ أو مصلحةٍ أو جهلٍ مُرَكَّبٍ أو غير ذلك.

إننا هنا في شأن تحييد قضايا المسلمين عـن قـضايا أعـدائهم التـاريخيين، أمـلاً في التمييـز بـين الهـدفينِ؛ لـسد ثغـرات التحـريش والفـتن في الجـسد الإسلامي الواحد، فالتحريش بين المسلمين كَلَّفَهُمُ العداوةَ والبغـضاءَ فـيما بينهم، كما كلفهم الاستناد والاعتماد على الكافرين؛ لما لهم من علاقةٍ وطيـدةٍ بسياسةِ التحريش ومساندةِ القائمين بها في العالم الإنساني والعالم الإسلامي.

وهذا هو الفشل بعينه.. وهذا هو سِرّ نجاح اليهود والنصارى والـدول المعادية، إما ظـاهراً وإمـا باطنـاً.. فـالجميع مـن أولئـك يعمـل عـلى زيـادة الاشتباك والتناقض والتحريش بـين المـسلمين مـن خـلال تعقيـدِ القـضايا بينهم، وزيادةِ التخذيل، والوصايةِ عـلى شـؤون الأمـة سياسـياً واقتـصادياً وإعلامياً وثقافياً..إلخ .

وهذا ما تكرّس اليوم في مراحل العلمانيـة والعلمنـة والعولمـة، ولم يعـد الخلاص في الأمة ممكناً إلا بتدخلٍ ربانيٍّ وآيةٍ رحمانيةٍ عظمى.

والتدخل الرباني ليس بعيداً في شأن نُصرة عباده؛ ولكنها بشروط نصرة الله، وأول شروط نصرة الله اجتماع كلمة المصلِّين ولو على بعض القواسم المشتركة إن لم يتحقق الاجتماع على كل شيء، وهذا لا يتحقق أيضا إلا بالتجرد عن مدخلات الثقافة الإعلامية التي بُنيت عليها الجسومُ، وتَصَلَّبتْ من داخلها الفهوم.

فالثقافة الإعلامية المعاصرة منذ نجاح مؤثرات طرفي الإفراط والتفريط في المسلمين قراراً وشعوباً بُعيدَ الحروب الكونية وشمولِ آثار الفكرِ الاستعماري وما تلاه من ثقافة الاستهتار والاستثمار قد عَمِلَتْ على تحويلِ العقول والقلوب والنفوس بالتدرُّج نحو التحريش والإثارة وحب الانتقام والهتك والفتك والتشفي الطَّبْعِيّ، بعيداً عن الأثر الشرعي في المعاملة والمقاضاة ونيل الحقوق، مع العلم أن التحريش والإثارة الطارئة على المسلمين في مرحلة الغثاء مختلفةٌ كلَّ الاختلاف عن التحريش والإثارة التي كانت في مراحل صدر الاسلام، سواءٌ كان في الدوافعِ وشروطها، أو في آثار التحريش وثمراته ونتائجه.

فالتحريش في تلك المراحل كان محصوراً داخل الخيمة الاسلامية، وغيرَ مستثمر لدى الأعداء التاريخيين، أما التحريش القائم في مرحلة الغثاء فيمتاز بأمور:

١. أن العالمَ الغربيَّ والعدوَّ التاريخيَّ قد بذل جهداً جهيداً في دراسة أسباب التحريش وعوامله وجذوره ومنطلقاته بواسطة الاستشراق، ثم سَيَّسَ هذا التحريش، وأنزله في معركة الاستعمار أحد وسائل النقض للموروثات على يد المتنفذين من المسلمين، إما بعجز الأجيال عن دراسة التربية الإسلامية وحقائقها، أو بالبدائل التوليفية المسيسة وتناقضاتها، أو بهما جميعاً.

٢. أن المتنفذين من القادة والعلماء في مرحلة الغثاء قد شاركوا العدو بعلم أو بغير علم على النفاذ إلى داخل الخيمة الإسلامية، والمشاركة المباشرة في هندسة الثقافة والتربية والإعلام والاقتصاد إلخ.. ودافعوا عن مفهوم صداقته وشراكته حتى استمكن منهم جميعاً وسيطر على مواقع النفوذ والتأثير الفكري والتعليمي والشرعي، كما سيطر من قبل على مواقع التأثير السياسي والاقتصادي والإعلامي.

٣. أن كافة الانهيارات الاجتماعية والفشل الاقتصادي والهزائم العسكرية التي منيت بها الأمة في معاركها المتنوعة خلال مرحلة الغثاء كان

أساسها ـ وبسببها ـ اختراق العدو الكافر لمواقع القرار والحكم، ومشاركة الدجاجلة النفعيين لهذه النكبات المتلاحقة حتى اليوم، ولا زالت مسيرة المسخ الدجالي مستمرة ومتطورة إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا، وخاصة فيما يتعلق بالمسألة الاعتقادية والمسألة الاقتصادية، فهما محور البداية وهما أيضاً محور النهاية في تفعيل الصراع بين الشعوب المسلمة.

يا عباد الله: اثبتوا...

هكذا صَرَخ رسول اللهﷺ ساعة حديثه عن الدجّال، وهو يصور حركتـه في العالم الإنساني آخر الزمان فقال عنه: إنه يعيث هنا ويعيث هناك، ويضطر الرجل أن يقيد أهله ونساءه بالحبال خوفاً من لحاقهم بالـدجال، وأن أكثـر مـن يتبعـه ـ أي: يقوم بدعوته ويؤمن بها ـ اليهود والنساء.

ولعل العقل المعاصر لا يفهم من هذا التحذير غير ما سيكون في المستقبل إن كان مؤمناً، أو السخرية والاستهزاء إن كان منكراً مكذباً، والحيرة والاسـتغراب إن كان متذبذباً متشككاً، والحقيقة التي يجب فك عقدتها للجميع أن الخطورة لا تكمن في بروز الدجال كذات ومرحلـة، وهكـذا قـال عليـه الـصلاة والـسلام: «لست أخشى عليكم الدجّال»، وإنما الخطـورة في العمايـات المتنوعـة ـ «ولكـن أخشى عليكم علماء الفتنة» ـ التي تمهّد لمرحلـة ظهـور الـدجال وخروجـه عـلى مركبة من نوع جديد ليقص شريط النجاح في دولته الإلكترونية المقننة، وحينهـا يستقبله الجميع من غـير تفـصيل ولا تنـوع لتبـارك الخطـوات الـشيطانية التـي وضعت بصمات الدجل على الحياة الاجتماعية المعاصرة.

إن المرحلة الدجالية الأخيرة تتضاءل فيها قضية الديانة (في خفة من الـدين) وتصبح الحياة العامة للمسلمين تقبل الانحراف وتربي أبناءها عليه وتـدافع عنـه وعن مخرجاته، ليس لأنه انجراف صريح، ولكن لأن الجميع هكذا يعيشون.

ومهمة (علماء الفتنة) من كل نموذج وفن وتخصص تمهيـد العقـل الإنـساني والإسلامي والإعلامي لقبول الدجل المنكوس وتقبيل أيادي الدجاجلـة الـذين هيؤوا فرص الحياة المستقرة بالحرام والإفك والخيانة.

وإذا كان الحرام في قاموسـنا حرامـاً فإنـه في قـاموس مرحلـة الـدجل مجـردُ تـسهيلاتٍ وخـدماتٍ ومـصالحَ مـشتركةٍ، وإذا كـان الإفـك في قاموسـنا كـذباً وافتراءاً فإنه في قاموس الدجاجلـة توجيـهٌ معنـويٌّ وثقافـةٌ وطنيـةٌ، وإذا كانـت الخيانة في قاموسنا كمسلمين نفاقاً وجنوحـاً فإنهـا في قـاموس الـدجالين حريـةٌ شخصيةٌ وقناعاتٌ معرفيةٌ وأسـلوبٌ وقـائيٌّ وتقيـةٌ، وهكـذا يكـون الانقـلاب (يسمونه بغير اسمه).

وهذا ينطبق كل الانطباق على السياسة الاقتصادية الربوية التي أكـد كتـاب الله تعالى فشل المتعاملين بها في كل مقومات حياتهم الدينية والدنيوية، وأن كافـة النماذج التي يلوحون بها كحل بديل إنما هـي نـوع مـن التخـبط الـشبيه بتخـبط

الممسوس بالشياطين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة:٢٧٥].

ولأن قـضية الديانـة تخـف في المراحـل المتقولبـة والمتقلبـة فـإن الوسـائل والثقافات والرؤى المؤثرة على الديانة والمتدين تتقوى تنتشر كبديل لازم للعقول والقلوب والمواقف، وبها يتحقق الـدجل ويـنجح الدجاجلـة ويمتلكـون زمـام التأثير والامتداد في الواقع الاجتماعي.

ومن قضايا الديانة التي تدخل سوق العرض والطلب مسألة التنـافس عـلى الجاهات والوجاهـات وامـتلاك المنـبر والمحـراب ومجلـس الإفتـاء والتـدريس والثقافة والدعوة، وكلها تتحول بين يـدي الـدجال إلى وظـائف بعـد أن كانـت قضايا مصيرية وشرعية خطيرة لا يتجرأ عليها ولا يستخدم نفوذها إلا المـتمكن من الإثبات تاريخياً، فالأجيال المتقولبة في محاضن التعليم والثقافة والأكاديميات تخف عندها الغيرة الشرعية لتتـسابق عـلى مواقـع الإفتـاء والقـضاء والتـدريس والمنـابر والمحاريـب ويتوصـل إليهـا بالحيلـة والرشـوة والمحـسوبية والغـش والضغوط السياسية والاعتبارية، ويظل مدلول الصوت النبوي لمن بقي في هـذا الواقع يتردد صداه: «يا عباد الله: اثبتوا»، وأما الذين لا يعنيهم صوت النبوة ولا يأتمرون لمفهومه المعنوي فصوت الدجل السائد هو صـوت أرواحهـم وقلـوبهم

وحاضرهم ومستقبلهم، ويزداد الابتلاء بالإعراض عن صوت النبوة عندما يرد في الواقع المعاصر أهل النمط الأوسط ومن لهم سند متصل كبقية السيف وسادة الصُلح الواعي.

فهؤلاء في الواقع المتناقض قد أفلست أوراقهم لدى سماسرة العرض والطلب ولم يعد لهم نسبة من القبول إلا في الواقع الشعبي البسيط والبسيط جداً، وسبب ذلك ضعف مخرجات مدارسهم الأبوية وذوبان الجمهور الأوسع منهم في ضبابية المراحل ومشاكل الحياة إضافة إلى ما وقع على رؤوسهم من معاول الهدم والنقض والإقصاء والبتر والاجتثاث، فهم بهذه الحالة مشلولو الحركة في الواقع الجديد .

والواقع الجديد من مهماته الأساسية منافسة هذا النموذج التقليدي ولو كان مهزوماً محبطاً ، ومع مناقشته من كافة الوجوه لابد من تشويه صورته وصورة المرتبطين به تاريخياً لتتمكن أطر التجديد من نيل الأصوات والتفات الوجوه واستثمار المرحلة.. وقد فعلوا ذلك.. ومع هذا فلابد من تكرار صوت النبوة ليصل الصدى إلى أبعد مدى، ولو بعد حين: «يا عباد الله اثبتوا».

وعباد الله هم كافة الشرائح الاجتماعية في واقع الشعوب، وهم أيضاً من بقي واعياً من سلالات وأتباع مدرسة النمط الأوسط من سادة الصلح وبقية

السيف، فبثباتهم والتزامهم طريق السلامة ما استطاعوا يظل صوت النبوة عالياً مدوياً متجدداً، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم:٢٤].

إن كثيراً من ضحايا المرحلة ينبهرون بهذا الطرح الجديد الغريب على الواقع كله ولكنهم قليلاً ما يصرحون بهذا الانبهار حتى لا تهتز الصورة المؤطرة في جدران الواقع المسيس، ومنهم من يحاول إعادة العبارات ليتفهم القصد الذي يتمخض عنه التوثيق، فلعل وعسى.

ولعل وعسى تختلف باختلاف القراء، فمنهم من يقبل الحق ويتمسك به ويشعر بانتمائه إليه، ومنهم من تتسع حدقاته للبحث عن مفاصل الضعف ونقاط الوهن التي ينتصر بها لمدرسة التمرحل المتحوصلة في الذات.

والتمرحل في قاموس المدرسة الأبوية محصلات النقض والقبض التي أشار إليهاﷺ في أحاديثه بأنها وسائل الشيطان والدجال في احتناك الإنسان آخر الزمان، فهل بعد حديث رسول اللهﷺ من حديث؟ وهل بعد بيان رسول اللهﷺ من بيان؟ من مثله قوله: «لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة، كلما

نقضت عـروة تمـسك النـاس بـالتي تليهـا، أولهـن: نقـضاً الحكـم، وآخـرهن: الصلاة[1]، ورُبَّ مصلٍّ لا أمانة له».

«إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه مـن صـدور الرجـال، ولكـن يقبـضه بقبض العلماء، فإذا كان ذلك اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسُئلوا فأفتوا بغـير علـم فضلّوا وأضلوا»[2] .

«يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها. قالوا: أَمِـن قلةٍ نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: لا أنـتم يومئـذ كثـير، ولكـنكم غثـاء كغثـاء

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢٥١) من حديث أبي أمامة قال الحـافظ نـور الـدين الهيثمي في مجمـع الزوائـد (٧/ ٢٨٤) رواه أحمـد والطـبراني ورجـالهما رجـال الـصحيح ،وقوله: «ورب مصل لا أمانة له» ليس هو من تتمة الحديث إنما هو حديث آخر أخرجـه الطبراني في الصغير (١/ ١٣٨) ،ومن طريقه أبي نعيم في الحليـة (٢/ ١٧٤) مـن حـديث عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ «أول ما يرفع من الناس الأمانة، وآخر ما يبقـى الصلاة، ورب مصل لا خير فيه» والحديث له شواهد هو بها صحيح.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٢٥٨ فـتح) ومـسلم في صـحيحه (٢/ ٤٦٤) والترمذي في الـسنن (٤/ ١٣٩) وابـن ماجـه في الـسنن (١/ ٢٠) والـدارمي في الجـامع (١/ ٨٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وللخطيب البغدادي الحـافظ جـزء في طرقه.

السيل، يلقى عليكم الوهن. قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حُب الدنيا، وكراهية الموت» وفي رواية: «...تنزع المهابة من صدور عدوكم»[1].

وقولهﷺ: «لتتبعن سُنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى إذا دخلوا جحر ضب لدخلتموه»[2].

هل يا ترى قد غاب عن رسول اللهﷺ خبر فشل المنهج الصوفي ونجاح المنهج السلفي، فلم يعبر عنه بالخصوص؟ وهل غاب عنه ضعف أهل السُنَّة المذهبية ليحل محلهم أهل التشيُّع الذين يعتقدون من جدارة البدائل لديهم؟ ولم يُشِرﷺ إلى هذه الجزئية في خصوص الخصوص؟

إن كافة المسميات المحتشدة على حافة الصراع المذهبي والطائفي لا تخرج عن مفهوم الغثاء الذي وصف فيه الرسولﷺ الزمان، ولم يستثنﷺ صوفياً ولا سلفياً ولا شيعياً ولا سنياً ولا حزبياً ولا حكومياً، وإنما جمع الأطر المتنافسة كلها في مسمى (الغثائية) ومسمى (الوهن) و (حب الدنيا وكراهية الموت).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ٦١٣ فتح) ومسلم في صحيحه (٢/ ٤٦٢) وأحمد في المسند (٣/ ٨٤) من حديث أبي سعيد الخدري.

وكل هذه الصفات تشير إلى ضعف المخرجات الفكرية دون المخرجات التعبدية لكل طائفة ومذهب، والمخرج من الإشكال للجميع أن يوجد ويبرز الأبطال القادرون على إيقاف نزيف الدماء وصراع المسميات والأسماء وإعادة شرف العلم والحلم الذي سار عليه رجال النمط الأوسط أنفسهم، سواء من حملة السيف المقاتلين به أو بقية السيف المقتولين به، فالقتل بين الفريقين لا يعالج قضية ولا يحل إشكالاً بل يخدم سياسة التسعير الإبليسية بين الشعوب، كما أنه يترك المحبين والمبغضين يدفعون بالشعوب نحو الهاوية والهلاك على غير تبصرة أو بيان شرعي، ويعد بلا شك تخاذلاً وفراراً من الزحف المشروع.

وما كتابي هذا – على ما أرجو إن شاء الله – إلا مساهمة في إعادة المياه إلى مجاريها وتقريرٌ واقعيٌّ للخروج من دوامة الهلاك المحقق إلى فسحة الإسلام، ومنهجية الوارث للنبي محمد خير الأنام من آل البيت الأطهار ومن ارتبط بهم وأخذ عنهم منهجية الوسطية والاعتدال الواعي من غير إفراط ولا تفريط.

وأما المحبّون فليسوا ورّاثاً، وإنما هم محبون للورّاث، وهم ما بين محب غال ومفرط وما بين معتدل أو متردد، والثقل الأكبر والأصغر إذا ائتلف رجاله تحققت النجاة ومخرت السفن في بحر الأمان والإيمان، ولا غير هذا أبداً، وأقول: إن الصراع المذهبي والاعتقادي والطبقي والطائفي إنما هي مخرجات شيطانية

دجالية لا تمت للإسلام ولا الغيرة عليه ولا حتى لإعادة الحق إلى نصابه، وغالباً ما يتبناه الأغرار والأشرار والمندفعون أو المنتفعون الهالكون.

ولن ينعم آل البيت من فريق الشيعة وآل البيت من أهل السنة ولا غيرهم من الطوائف المتنازعة بأمن ولا أمان ولا ديانة ولا عبادة ولا حتى ضمان للموت على حسن الخاتمة إذا ظل صراع الثارات رائداً ولهيب الطائفيين قائداً.

لأن هذه الأساليب حيل الشيطان لدمار الجميع، وهي المرآة العاكسة في كل مرحلة وسائل الشيطان في الشعوب سواء كانت شعوباً مسلمة أو شعوباً غير مسلمة، فالصراع والتكتل عين النجاح لسياسة الدمار لدى إبليس وبه تحقق مقتل هابيل في سابق التاريخ.

وبه أيضاً عرفت اليمن كمثال تفعيل الصراعات بين الثوار الأحرار كتلة ضد الأخرى في أيام الحرب الأهلية، وكذلك كتلة ضد الأخرى في السلم والتنمية، وبهذا يضيع الحق بين الفريقين ويستثمر الشيطان كافة الجهود لهلاك المجتمعات جيلاً بعد جيل وتاريخاً بعد تاريخ.

لقد بذل الكثيرون من العلماء جهداً ووقتاً في ترجيح مذهب ضد آخر أو رفع مستوى مذهب على مذهب آخر ليزداد أتباع كل مذهب حرصاً على ترويج المكانات والأسبقيات التي يتم فيها نوع التنافس والتميز، وقد تيسر لي في إحدى

المرات حضور اجتماع لأحد العلماء المالكية وهو يتحدث عن شرف مذهب الإمام مالك ومكانته بين المذاهب مما أثار بعض أتباع المذهب الشافعي الذين كانوا في ذلك المجلس، وظهر ذلك على الوجوه والأحوال، حتى إن عدداً منهم ساعة انفضاض المجلس يود أن تهيأ الفرصة لأحد علماء الشافعية ليتكلم عن مكانة المذهب الشافعي وانتشاره أكثر من مذهب مالك.

وهذا وحده كفيل بإثارة النفوس داخل منهج أهل السنة وحدهم لسوء أساليب الأطروحات بين المذاهب ذات القواسم المشتركة، فكيف بما ينزع إليه الانفعاليون في تفعيل الصراع بين الذين تتباعد قواسمهم المشتركة.

وسبب هذا وذاك انعدام الوعي الشرعي في احترام الرأي المخالف وقوة تأثير الطبع الذاتي في الإصرار على هزيمة الند فضلاً عن الضد المخالف، وهذه مسائل طبعية بحتة، يمكن للشيطان بها أن يوسع دوائر الصراع المسمى في القرآن بالبغي ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [الجاثية:١٧].

وقد كان مثل هذا أو قريباً منه في ماضي العصر العباسي وما تلاه، حيث بلغ التعصب مبلغه في العلماء ضد بعضهم البعض، فالمظفر الطوسي الشافعي يقول:

«لو كان لي من الأمر شيء لأخذت على الحنابلة الجِزْيَة»، وقوله محمد بن موسيا لحنفي: «لو كان لي من الأمر شيء لأخذت على الشافعية الجِزْيَة»[1].

والبغي بين طلبة العلم وحملة الشريعة عامل خطير من عوامل الانتهاك باللسان والقلم أو الإعلام أو غير ذلك، وهو أيضاً سبب الهلاك إذا ارتفع إلى مستوى التنافس على الجاه والحطام، وبه بشر النبيﷺ الأمة بالهلاك إذا اتخذته أسلوباً وطريقة وعادة سواء في العلم أو في الحكم أو في الاختلاف فيهما وعليهما «لست أخشى عليكم الفقر» وفي رواية: «الشِّرك، وإنما أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها فتهلككم كما أهلكت من كان قبلكم»[2] .

والهلاك ثمرة التنافسات التي تدور بين أهل الملة الواحدة والدين الواحد، ولا حجة لأحد من الفريقين على الآخر ما دام الأمر قائم على التنافس حتى يتم تنازل جهة لأخرى، والمتنازل هو الشجاع من كل وجه كشجاعة الإمام الحسن بن علي رضي الله عنه في تنازله المشرف لذاته، والحافظ من وجه آخر أهل بيته، والمؤيد بالنص الشرعي بقولهﷺ «إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به»، وهذه

(١) راجع مقدمة كتاب أسد حيدر(الإمام الصادق والمذاهب الأربعة)، الجزء الثالث.

(٢) تقدم تخريجه.

ميزة عظيمة أن يكون التنازل من عند الله علاجاً لإيجاد الصلح وأيضاً تثبيت لسلامة الفريقين داخل الخيمة الإسلامية (فريقين من المسلمين) وهذا نص خطير جداً في فقه التحولات يحسم مسألة كثر فيها اللجاج وهي دخول الفريقين في قاسم مشترك بالنص النبوي وهو الإسلام، ولو كان القتال حلاً من حامل القرار الشرعي كما يدعو إليه الأتباع والأشياع في كل مرحلة، فلن تطلق هذه المسميات العظيمة على الصلح وداعية ودواعيه.

لقد أعمى الاندفاع الأبصار والبصائر حتى لم تعد الأبصار ترى إلا صور الأعداء وشعارات الانتقام ولا تدرك البصائر غير ما يدعو إلى الهتك والفتك والدماء وإرواء الحقد المتأجج بالأحداث، ولو تبصرنا وأبصرنا وأعدنا النظر والفكر في مخرجات النصوص المؤكدة سلامة الداعين إلى الصلح واتسع الإدراك قليلاً لوجدنا أن الفريقين قد اصطلحا فيما مضى على ما قرره الإمام الحسن ثم نقض هذا الصلح لسبب وآخر، وامتد شر اختلافهما ونزاعهما وصراعهما حتى اليوم، وأن العبارة النبوية جديرة بإحياء المعنى القائل: «وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين»[1] إلى يوم الدين، فالموقف الذي اتخذه الحسن لا موقف ينقضه ولا يغيره، وكلما رجع الفريقان من أهل السنة والشيعة إلى صلح الحسن

(١) تقدم تخريجه.

ودراسته وتطبيقه بصور شتى ومعان سديدة لعرف الجميع عالمية المعنى واستمراريته، وهذا هو الحق الذي نهجه فريق السلامة من أهل النمط الأوسط.

وليس في هذا الموقف غمط لموقف الإمام الحسين ولا اعتراضٌ على اجتهاده، فموقفه عدل واجتهاده صحيح، وخروجه قائم على أسسه الصحيحة لدى أهل الاجتهاد المشروع، ولكن هذا الحكم لا يتعداه إلى غيره ولا حجة للآخرين في الأخذ عبر تاريخ الإسلام المتحول بالثأر من عموم المصلين، لأنهم كما يقولون كانوا من أهل السُنّة ولم يكونوا مِنَ الشيعة، أو أن أهل السُنّة كانوا شركاء في دم الحسين، فصار تخاذل الشيعة يوم مقتله وتأخرهم عن نصرته دعوة للأخذ بالثأر من عساكر الملك العضوض يخول لهم أيضاًمحاربة المذهب السني الذي لا ناقة له ولا جمل في المعركة، لأن المذهب السُني كما يعتقدون كان ثمرة من ثمرات حُكم المُلكِ العَضوض، وهذا محض افتراء وجهل بالوقائع والأحداث، وفساد في قراءة تاريخ أهل البيت فضلاً عن قراءة تكوين المذاهب ذاتها.

ولأن القراءة السياسية تنبع دائماً من دجل السياسة وسياسة الدّجل فلا بد أن يكون تعليلها تحريش وإثارة، أما قراءة الأحداث من النصوص ومواقف الرجال ذواتهم تحت الالتزام بما هو معلوم من الاقتداء والاهتداء في الإسلام

فلابد أن تنشئ هذه القراءة الحدود الفاصلة بين أهل السنة من النمط الأوسط وأهل السنة من أتباع الملك العضوض، وكما يميز أهل التشيع الواعي عن أهل الإفراط والتفريط والتسييس من أتباع الرافضة والسبئية ومن شاكلهم، من المواقف والتعليلات المعلومة في كتبهم ومصنفاتهم، وهكذا يكون العدل والإنصاف.

وهذا ما نحن بصدده: إنه إعادة القراءة الواعية للنمط الأوسط في كل مذهب ومنهج ودعوة، وهو الموقف الذي يليق بنا أن نردد معه مقولة النبي ﷺ: «يا عباد الله: اثبتوا...»[1].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٥٧٢) والترمذي في سننه (٣/ ٣٤٦، ٣٤٧) وابن ماجه في السنن (٢/ ١٣٥٦) من حديث النواس بن سمعان.

مسك الختام

ها أنذا أختم كتابي وأنا أشهد مع غيري من المهتمين بشأن التحولات حال المسلمين أجمعين وما يعانونه من إحباط وشتات وحرب نفسية وإعلامية واقتصادية من جهة.. وحرب عسكرية منوعة الجبهات والوسائل من جهة أخرى.

كما أشهد التوتر الطائفي والعرقي والقبلي في أكثر من بلد ومجتمع.. بل زاد الأمر تعقيداً ما يعيشه الجميع من غلاء في الأسعار، وهم وغم في نفوس الرعايا المأسورة في الأرياف والمدن وهم لا يجدون المخارج العملية من هذا الاحتقان الاقتصادي والفكري؛ إلا ما تمليه عليهم شاشات التسييس.. وتنهدات الأباليس.. وإن وجد شيء من التنفس والتفاؤل فلا يتجاوز حال الفرد المؤمن الصابر، أو محاولات المخلصين المحدودة في مكان ما دون دون آخر لإيجاد علاج محدود وتجاوز باب موصود.

ومع هذا وذاك فمفرزات الثقافة المتحولة تفرض على الكثير من أهل عصرنا السؤال التالي: إلى متى والأقلام لا تدور ولا تكتب مع ما نحن فيه ونعانيه إلا عن أهل البيت وقضية آل البيت كأن هذه هي القضية الكبرى؟ أليس الإسلام

هم الجميع وهدف الجميع؟ شغلتمونا اليوم وقبل اليوم بهذه القضايا الجزئية التي لا تسمن ولا تغني من جوع؟

أليست الأمة محتاجة إلى إنهاض من ألفها إلى يائها؟ أليس في أجنحة الحركة الحكومية والسلفية والحزبية والشيعية من يرغب مثلكم في خدمة الإسلام وجمع الأمة على شيء من قواسمها المصيرية كمطلب شرعي للجميع دون الحاجة لتعيين عائلة أو سلالة أو أسرة؟ لماذا لا توجه الأقلام والهمم لإعادة الترتيب الواعي على صورته الإسلامية العامة.

وأشياء أخرى.. ومناقشات تترى.. وأقول: بلى والله.. إن كل هذه الأسئلة والاستفسارات مهمة وفي موقعها، على ما فيها من العموميات والنظر للأمور بعَيْن التحرر النفسي عن الإلزامات والالتزامات.. وغالبا ما نسمعها من الحريصين على الترتيب وحسن الإعادة للواقع المضطرب ممن ولدوا ودرسوا وتخرجوا في أتون الواقع المضطرب ونحن جزء منهم ومن الواقع المضطرب ذاته، وهي بلا شك دفعة صحيحة لقلمي وذاتي ووقتي لأسعى مع كل خير في هذا السبيل الإسلامي الواعد، بل هو والله شغلي الشاغل مذ عرفت نفسي على منبر الدعوة إلى الله تعالى مع اعترافي بعدم أهليتي وسوء جرأتي على هذا المنبر العظيم.

ولكن والله يعلم أن الحالة الراهنة فينا نحن الـدعاة والرعـاة ومـا نعيـشه في دوائـر الـذوات والأسر والعـائلات، ومـا نعاينـه مـن الأتبـاع والأشـياع مـن التجاوزات والتبعات، وما يتشتت علينا به من الوقت والجهـد في لم شـعث هـذا وإعادة ترتيب ذاك.. وصرف الوقت والجهد لإنقاذ مـا يمكـن إنقـاذه في داخـل دوائر الذوات وتربية البنين والبنات.. وداخل أقبية البيوت والأربطة والعائلات ذات الانتماء للمدارس الأبوية التقليدية، كل ذلك قـد اسـتنفد علينـا الأوقـات والهمم والقدرات.

حيث وجدنا حالنا كله في ألفه إلى يائـه منـذ فـتح أبـواب المرحلـة الجديـدة للعمل الدعوي أنه مخترق من كل الجهات.

مخترق من الشيطان والنفس والهـوى وحـب الـدنيا.. ومخـترق مـن الطبـاع وركام العادات والأهواء.. ومخـترق بـالحملات الإعلاميـة والعالميـة.. ومخـترق بالأساليب التعليمية الهشة.. ومخترق بالواقع المادي المحـبط الـذي لا يقـيم أمـر الفرد ولا الأسرة.. ومخترق بالتراكمات السياسية السلبية التي عملت على إنجاح النواقض الفكرية والاجتماعية.

وبهذا اتسع الخرق على الراقع.. ولا نجد أنفسنا أمام هذا كله إلا ضعفاء منهكين غير قادرين على أن نبذل أكثر مما بذلناه.. وأن نقول أكثر مما قلناه في محيط الأمثال والأشباه.

ولكن ومع ذلك نحن في حاجة إلى الآراء الحكيمة والعقول السليمة من كل عاقل حصيف منصف، وما تهيأ لنا من واقع الحركة المحدودة فهو إن شاء الله مبارك ومثمر.. وما فاتنا وقصرنا عنه لسبب أو لآخر فلا نجد بأسا أن يدلنا عليه غيرنا من دائرة المجموعات الواعية في كافة مواقع الحركة الإسلامية المعنية بالأمر المشار إليه بالنمط الأوسط.

فهدفنا واحد وإن كانت مساعينا متنوعة، فلنقرب المسافات ولنعمل على إذابة الجليد المتراكم بفعل برودة الطباع وكثرة زوابع الصراع والنزاع، فالوقت لا زال فيه فسحة.. وخير لنا في هذه الحقبة من الزمن أن نلم الشعث ونقارب وجهات النظر ويبرز لهذا العمل من إخواننا المخلصين من يؤازرنا في ذلك.

فلسنا في تآليفنا وكتابتنا واجتهدنا الدعوي والكتابي مقتصرين على الذوات والذاتيات أو كما يعتقد البعض بأننا شغوفون بقضية الترويج لآل البيت دون غيرهم من المسلمين في المجتمعات.

فالقائل لهذه العبارات عجل في الحكم على غيره أو هو هادم كل محاولة صحيحة لإيرادها من زاويته ونظرته وإن كانت نظرة غيره صحيحة أو غير نافعة في الواقع العام.

إنني أختم كتابي هذا وأمامي من التصورات المتنوعة ما يتسع المجال لإثباته هنا.. ولكن أقول الحقيقة من حيث عرفتها وأستسمح الآخرين إن لم يولوا فهمي لهذه الحقيقة اعتبارا من وجهة نظري.. فأنا أقدر الرأي الآخر وإن كان مخالفا لي.. ما دام يدور معي في دائرة البحث عن إصلاح ما فسد من الواقع الخاص أو العام.

أقول: إن الأمة إلى خير بعمومها.. وإنها تكاد أن تخرج من مرحلة الاستثمار إلى مرحلة الاستنفار.. وللاستنفار علله وتجاوزاته..

ولكنها بداية الخير.. من واقع يسعى إلى الخير.. وأنا متفائل.. برغم ما قد أَثْبَتُّهُ هنا من صور التشاؤم المتنوع.

إن المستقبل القريب يهيئ هذه المجموعات المتنازعة المتصارعة في أمر الدين إلى الائتلاف عل القاسم المشترك.. (النمط الأوسط).. وكل بلا شك يرغبه ويرجوه.. ما عدا من أبى.

ومن يأبى فمجاله مفتوح.. وله من الله – إن كان صادقا – عون وحجة..

ولابد أن يُكون (النمط الأوسط) كما هو في ثوابته العامة وسيلة من وسـائل المعالجة وهو المنقذ والمنفذ السديد إلى تحقيق (الاستنفار) الواعي.. بديلا عن هذه الأصوات الاسـتسلامية المتقولبـة في القوالـب الرسـمية وشـبه الرسـمية.. إنـه صوت (الشعوب) المسلمة المتجردة عن التسييس والمتجردة عن العنف والحقـد والانتقام.

وهاأنذا أدعو هنا جميع الراغبين في السلامة على مفهوم (النمط الأوسط) إلى مناقشة هذا الأمر على بـساط الاسـتعداد لمرحلـة قريبـة آتيـة، وإنَّ غـداً لنـاظره قريب..

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمـد لله رب العالمين.

فهرس